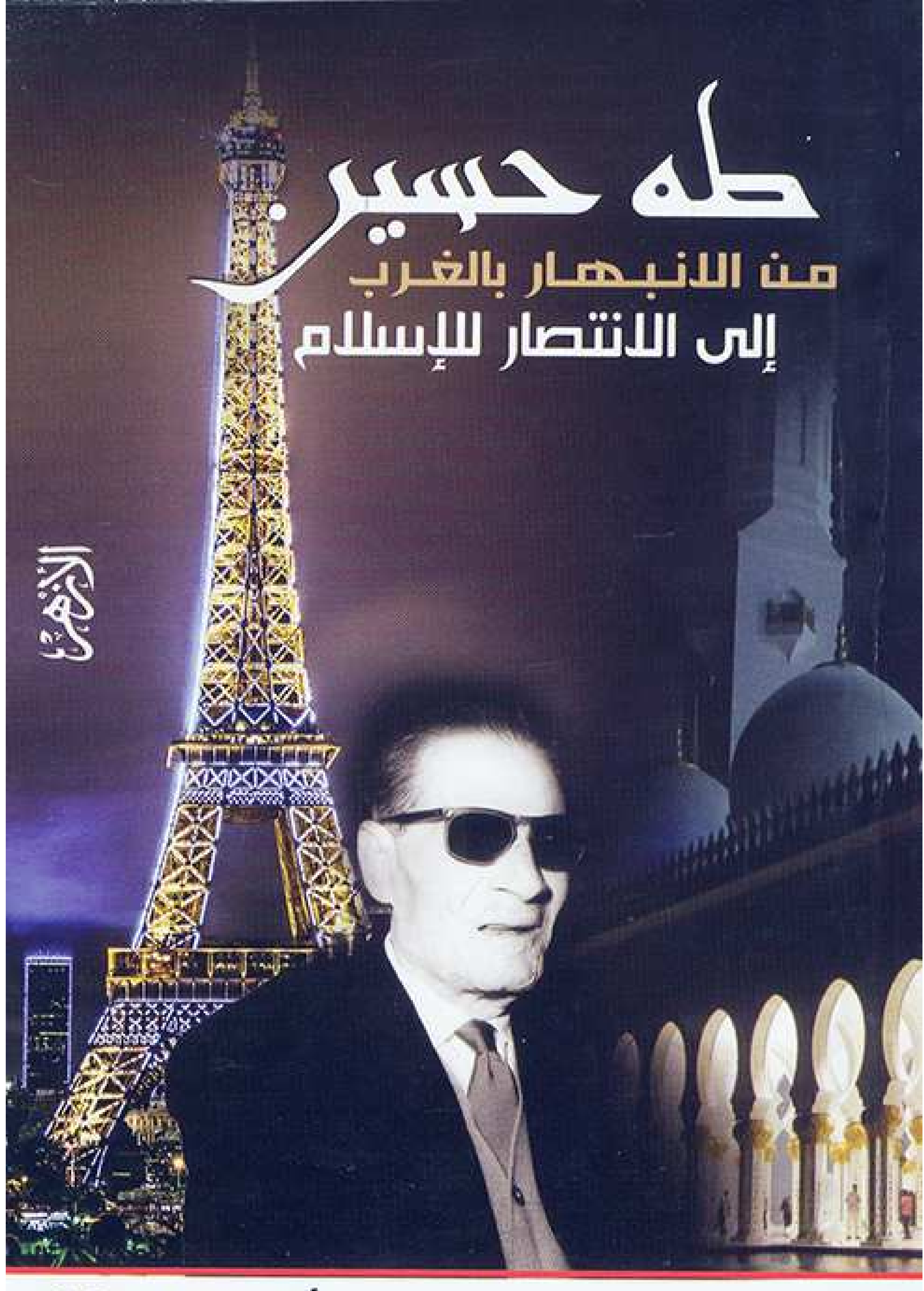
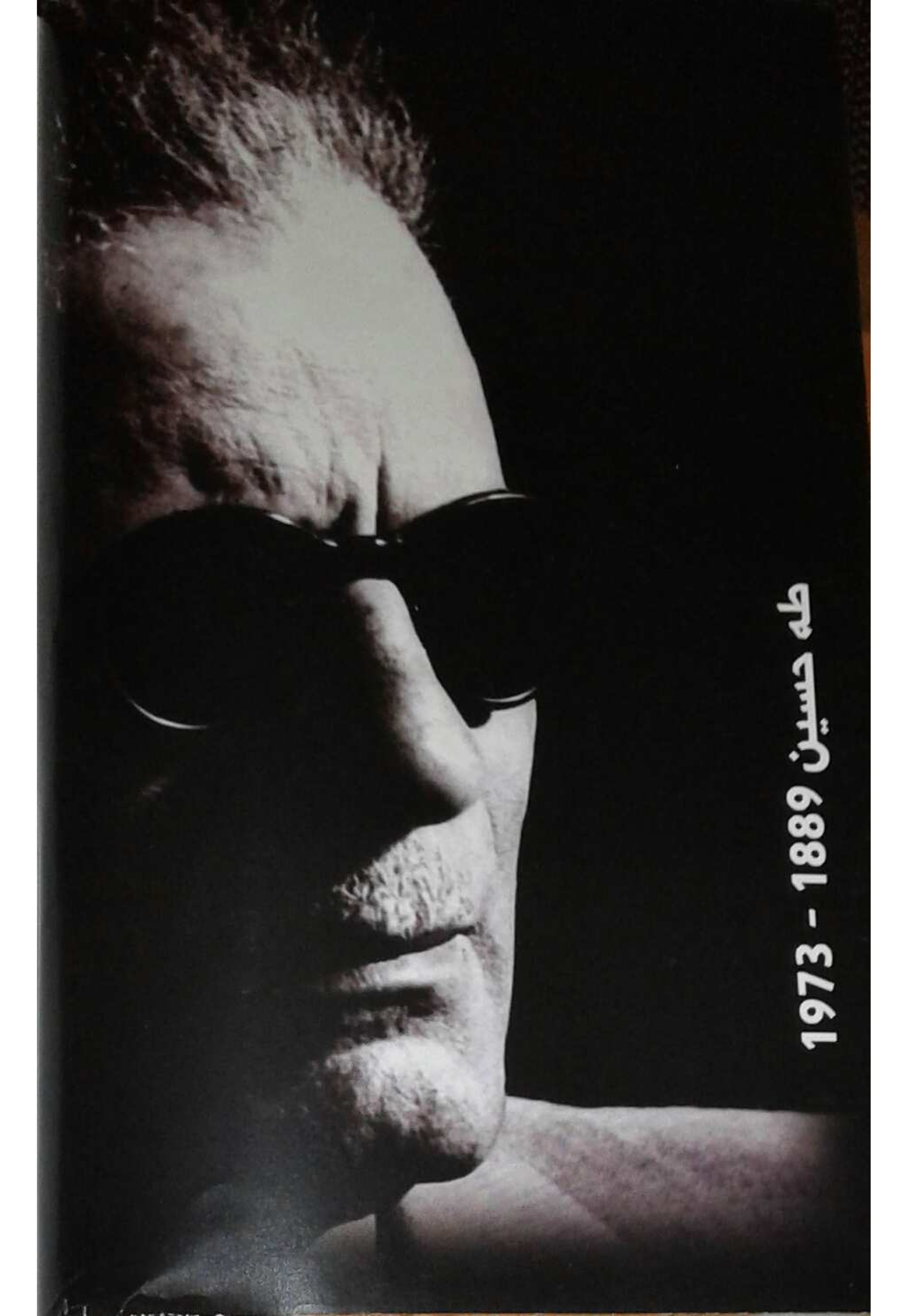


أ.د. محمد عمارة


طه حسين 1889 - 1973



للأستاذ الدكتور:

محمد عمارة

هدية ذي القعدة ١٤٣٥ هـ



بطاقة حياة

وُلد طه حسين ١٣٠٧ – ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ – ١٩٧٣م، في عزبة الكيلو – مركز مغاغة – محافظة المنيا – بصعيد مصر – في ٢٠ ربيع أول سنة ١٣٠٧هـ ١٤ نوفمبر سنة١٨٨٩م.. ولقد فقد بصره في سن مبكرة.

حفظ القرآن الكريم بكتَاب القرية.. ثم التحق بالأزهر – في القاهرة سنة ١٩٠٢م.. وفيه تتلمذ على عدد من شيوخ الأزهر، من أبرزهم الشيخ سيد المرصفي، والشيخ الشنقيطي، والشيخ عبد العزيز جاويش.. وحضر درسين للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده – كانا آخر دروس الإمام قبل وفاته سنة ١٩٠٥م – وكان طه حسين يومئذ في الرابعة عشرة من عمره.

كان متمرداً على الدراسة بالأزهر، فحرمه شيوخه من نيل شهادة العالمية – فالتحق بالجامعة المصرية – الأهلية سنة ١٩٠٨م.. وفي الجامعة تأثر بمناهج النقد التي درسها على المستشرقين «نللينو» [١٨٧٢ – ١٩٣٨م] و«ليتمان» [١٨٧٥ – ١٩٥٨م] و«جاستونفييت» [١٨٨٧ –

١٩٧١م].. ومن الجامعة نال أول دكتوراه منحتها الجامعة عن رسالته (تجديد ذكرى أبي العلاء) سنة ١٩١٤م.

بدأ تعلم اللغة الفرنسية سنة ١٩٠٩م بمدرسة ليلية أنشأها الشيخ عبد العزيز جاويش.

ارتبط بـ«حزب الأمة» - حزب أحمد لطفي السيد.. وكتب شعراً ونثراً في صحيفته (الجريدة). وكانت أولى قصائده المنشورة - بالجريدة - في ١ / ١ / ١٩٠٨م - في رثاء حسن باشا عبد الرازق - رئيس حزب الأمة - وفيها هجاء للحزب الوطني - حزب مصطفى كامل باشا - وعندما توفي مصطفى كامل سنة ١٩٠٨م لم يتبعه طه حسين، رغم أن مصر كلها قد اهتزت لوفاته.

ثم قادته علاقاته بالشيخ عبد العزيز جاويش إلى صحافة الحزب الوطني - بعد تراجع دور حزب الأمة - واستمرت هذه العلاقة حتى سفره إلى فرنسا سنة ١٩١٤م.

في هذه المرحلة نشر مقالات في النقد الأدبي والفكر الديني في صحف (الجريدة) و(مصر الفتاة) و(الشعب) و(الهداية) و(الوطن) و(العلم).. فكتب عن الوطنية المصرية، والدستور، والحكم النيابي، وتحرير المرأة والتدين، وتحكيم القرآن والشريعة والفضيلة.. وفي النقد الأدبي هاجم - بضراوة - أعلام العصر - المنفلوطي

والرافعي، وحافظ إبراهيم، وكتاب (المؤيد) - فضلاً عن شيوخ الأزهر.. فكانت له آراءه - في هذه الفترة - خالفها هو بعد سفره إلى فرنسا - منها:

نقده التزيي بالأزياء الإفرنجية.. وتحريمه زواج المسلم من الكتابية الأوروبية:

كانت أولى محاضراته بنادي الموظفين - في أكتوبر سنة ١٩١١م - عن تاريخ اللغة العربية.

سافر إلى فرنسا - مبعوثاً من الجامعة المصرية إلى جامعة السوربون سنة ١٩١٤م - وعاد إلى مصر ثانية شتاء ١٩١٥م بسبب الحرب العالمية الأولى.. ثم استأنف السفر ثانية إلى فرنسا سنة ١٩١٥م. ومن السوربون نال الدكتوراة سنة ١٩١٧م عن رسالته (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية). كما نال إجازة الآداب سنة ١٩١٧م.. والدبلوم العالي في التاريخ القديم واللغتين اليونانية واللاتينية.

وفي فرنسا تزوج سنة ١٩١٧م من زوجته «سوزان برسَو».

ولقد عاد من فرنسا سنة ١٩١٩م، فدرَس بالجامعة المصرية دروس التاريخ اليوناني والروماني.. وشغل كرسي التاريخ القديم.. ونشر سنة ١٩٢٠م كتابه (صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان).. في سنة ١٩٢١م نشر كتابه (نظام الأثينيين - لأرسطو).

وعندما أصبحت الجامعة حكومية سنة ١٩٢٥م تولى فيها كرسي الأدب العربي.

وفي سنة ١٩٢٥م نشر كتابه (قادة الفكر) - الذي عبَّر فيه عن الإعجاب الشديد بكل ما هو غربي.. كما أسهم سنة ١٩٢٥م في تأليف كتاب (الإسلام وأصول الحكم).. وفي الدفاع عنه بصحيفة (السياسة).. وفي العام التالي سنة ١٩٢٦م - نشر كتابه (في الشعر الجاهلي) - الذي أثار ضجة فكرية وسياسية كبرى.

في حقبة العشرينيات - وبعد انقسام زعماء ثورة ١٩١٩م إلى «سعديين» مع سعد زغلول - و«عدليين» مع عدلي يكن - انحاز طه حسين إلى العدليين، وهاجم (الوفد) وسعد زغلول.. وأصبح من أهم كتاب (الأحرار الدستوريين) وصحيفة (السياسة) - التي كان يكتب لها منذ أواخر سنة ١٩٢٢م مقالين في الأسبوع - الأحد والأربعاء -.. وأشرف على صفحتها الأدبية منذ خريف سنة ١٩٢٣م.. وكان يرأس تحريرها في غيبة رئيس تحريرها د. محمد حسين هيكل.

كما نشر مقالات ثقافية وسياسية في (الأهرام) عامي ١٩٢١ و ١٩٢٢م.

ولانحيازه - في العشرينيات - لأحزاب الأقلية، لم يكتب أي نقد لحكومة «اليد الحديدية» التي رأسها محمد محمود

باشا (يونيو ١٩٢٨ - أكتوبر ١٩٢٩م) - والتي عطلت الدستور والبرلمان-.

انتخب عميداً لكلية الآداب في بداية سنة ١٩٢٨م، وذلك ليوم واحد.. ثم استقال تحت ضغوط أجنبية تريد بقاء العمادة في الأساتذة الأجانب.. فتولاها الفرنسي «جوستاف ميشو».. ثم عاد فانتخب عميـــدًا في نوفمبر سنة ١٩٣٠م.

في سنة ١٩٣٢م تجدد الجدل حول كتابه (في الأدب الجاهلي) - الذي هو امتداد متطور نكتابه (في الشعر الجاهلي) -.

ووقف الأزهر ومجلس النواب - ومعهما حكومة إسماعيل صدقي - ضد الكتاب.. وفي ٢٠ مارس سنة ١٩٣٢ قرر مجلس الوزراء فصل طه حسين من وظيفته الجامعية.. فانتقل إلى صحافة حزب الوفد، وأصبح من كبار كتاب صحف (كوكب الشرق) و(الوادي).. ومع الكتابات السياسية، بدأ يتوجه - مع كوكبة من الكتاب والمفكرين - إلى الكتابة في الإسلاميات.. وإلى جانب صحافة الوفد بدأ - في تلك الحقبة - الكتابة في مجلات (الرسالة) و(الهلال) و(الجهاد) و(الحديث) وغيرها.

عاد إلى الجامعة أواخر سنة ١٩٣٤م أستاذًا.. ثم انتخب عميـــدًا للآداب أواخر مايو سنة ١٩٣٦م وحتى سنة ١٩٣٩م.

تولى منصب المراقب العام للثقافة - بوزارة المعارف

١٩٣٩ - ١٩٤٢م.. وشغل منصب المستشار الفني لوزارة المعارف ١٩٤٢ - ١٩٤٤م.. وأشرف على إنشاء جامعة الإسكندرية ١٩٤٢ - ١٩٤٤.. وأسس لإنشاء جامعة عين شمس.. ولنواة جامعة أسيوط.. وأسس المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.. وأنشأ كرسيًا للغة العربية وآدابها بجامعة أثينا. وتولى وزارة المعارف بحكومة الوفد - يناير سنة ١٩٥٠- يناير سنة ١٩٥٢م.. وهو صاحب قرار مجانية التعليم الثانوي والفني.

شغل منصب المستشار لدار الكاتب المصري - مؤسسة أسرة هراري - اليهودية المصرية - ما بين أكتوبر سنة ١٩٤٥ وحتى مايو سنة ١٩٤٨م.

انتخب عضوًا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٠.. ورأس المجمع منذ ١٩٦٣ وحتى وفاته.. وكان عضوًا - منذ ١٩٦٤م بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.. كما تولّى رئاسة اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية. ورأس تحرير صحيفة الجمهورية سنة ١٩٦٠م.

أيّد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ - التي نظرت إليه كمفكر، ونصير للعدالة الاجتماعية - وليس كحزبي - وأصبح من كبار كتابها المدافعين عن توجهاتها الوطنية.. والعربية.. وفي عدم الانحياز.. ومناصرة حركات التحرير الوطني.. وضد الأحلاف العسكرية الاستعمارية..

كان أول كاتب ينال جائزة الدولة التقديرية للآداب سنة ١٩٥٨م.. كما نال وسام قلادة النيل سنة ١٩٦٥م.. وحصل على العديد من الألقاب والأوسمة وشهادات الدكتوراة الفخرية من عدد من الجامعات - من جامعة ماليزيا سنة ١٩٦٦م - ومن جامعة مدريد - ومن جامعة غرناطة سنة ١٩٧٠م.. وتسلم جائزة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان قبل وفاته بيومين.

قام برحلات وزيارات خارجية كثيرة.. وشارك في العديد من المؤتمرات الفكرية والثقافية.. وكانت رحلته إلى الحجاز - سنة ١٩٥٥م - ذات تأثير عميق في تطوره الفكري ومراجعاته الفكرية.

كان حريصًا طوال حياته الفكرية على أن تكون أفكاره لافتة للأنظار - بل ومثيرة للجدل -.. وخاصة الكثير من المعارك والمساجلات الفكرية والأدبية مع كثير من أعلام عصره - المنفلوطي، والرافعي، وحافظ، وشوقي، والعقاد، والمازني، وزكي مبارك، ومنصور فهمي، ومحمد حسين هيكل، وساطع الحصري، ورئيف خوري، ومحمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس.. إلخ.. إلخ..

ولقد نشر في حياته نحوًا من ألف وخمسمائة مقالة، وأربعة وخمسين كتابًا في الفكر والأدب والنقد، وست روايات، ورواية لم تكتمل - هي (ما وراء النهر) - التي بدأها سنة

١٩٤٦م ونُشرت بعد وفاته سنة ١٩٧٥م.. وخمسة كتب في القصص القصيرة.. وله اثنتي عشرة قصة لم تجمع، وأحد عشر كتابًا مترجمًا، وثلاثين مقالة مترجمة، وسبعة عشر كتابًا مؤلفًا بالاشتراك مع آخرين، وثمانية كتب محررة بالاشتراك مع آخرين، ومقدمات لثلاثة وأربعين كتابًا، وثلاثًا وعشرين قصيدة شعر - لم تُجمع ولم تُنشر في حياته.. ونصوص فرنسية تُرجمت - بعد وفاته - ونشرت تحت عنوان (من الشاطئ الآخر).. ولقد ترجمت العديد من كتبه إلى العديد من اللغات الغربية والشرقية.. كما أشرف على نشر العديد من المصادر والمراجع الفكرية - ومنها موسوعة قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (المغني في أبواب التوحيد والعدل) - في الفكر الاعتزالي-.

وله شعر جيد، منه ما ضاع، ومنه ما نُشر في الصحف.. ولقد ذكر في الجزء الأول من (الأيام) عن وفاة أخيه بالكوليرا - صيف سنة ١٩٠٢م - أنه كان ينفق وقتًا طويلًا في نظم قصائد يرثي بها أخاه، ويختم كل قصيدة بالصلاة على النبي ﷺ واهبا ثواب هذه الصلاة إلى أخيه.

ولقد أنجب ابنته «أمينة» - التي أطلقت عليها زوجته اسمًا فرنسيًا - «مارجريت» - وابنًا هو «مؤنس» - الذي أطلقت عليه زوجته اسمًا فرنسيًا - «كلود»-.. ولقد أهدته ابنته مصحفًا صغيرًا، فقال لها: «لك العهد يابنتي: لا يفارقني مصحفك الدقيق حيًا أو ميتًا».. أما ابنه، فلقد نال الدكتوراة

من فرنسا عن (تأثير الآداب الإسلامية في الأدب الفرنسي) . . ولقد نصح ابنته أمينة بإدخال أولادها مدارس عربية . . أما ابنه فيقال إنه تنصر ، ومات نصرانيا في فرنسا .

ولقد اعتلَّت صحته من ١٩٦٤م . . فكان حتى وفاته - قارئاً أكثر منه كاتباً .

ولقد تحدث - قبيل وفاته - إلى د . غالي شكري [١٩٣٥ - ١٩٩٨م] فقال :

« إن البلد لا يزال متخلفاً وفقيراً ومريضاً وجاهلا- نسبة الأمية كما هي، ونسبة المثقفين تتناقص بسرعة تدعو للانزعاج - يخيل إلى أن ما كافحنا من أجله هو نفسه لا زال يحتاج إلى كفاحكم وكفاح الأجيال المقبلة بعدكم . . . أودعكم بكثير من الألم وقليل من الأمل » ! . .

ولقد تُوفي طه حسين - ومصر مشغولة بأحداث حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م - توفي أول شوال - يوم عيد الفطر - سنة ١٣٩٣هـ ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣م . . . ودُفن في القبر الذي أوصى أن يحفر عليه هذا الدعاء النبوي والذي كان أثيراً إلى قلبه قريباً من لسانه :

«اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، لك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد ، أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق ، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم

لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت. أنت إلهي لا إله إلا أنت».

رحمه الله.

ومن بين الآثار الفكرية التي خلَّفها طه حسين، تبرز هذه الآثار، التي نشرت في هذه التواريخ:

١-[تجديد ذكرى أبي العلاء] - سنة ١٩١٥م.

٢-[آلهة اليونان] سنة ١٩٢٠م.

٣-[حديث الأربعاء] - ج١ - سنة ١٩٢٥م.

٤-[فلسفة ابن خلدون الاجتماعية] سنة ١٩٢٥م.

٥-[قادة الفكر] سنة ١٩٢٥م.

٦-[حديث الأربعاء] - ج٢ - سنة ١٩٢٦م.

٧-[في الشعر الجاهلي] - سنة ١٩٢٦م.

٨-[في الأدب الجاهلي] - سنة ١٩٢٧م.

٩-[الأيام] - ج١ - سنة ١٩٢٩م.

١٠-[حافظ وشوقي] - سنة ١٩٣٣م.

١١-[على هامش السيرة] - ج١ - سنة ١٩٣٣م.

١٢-[في الصيف] - سنة ١٩٣٣م.

١٣-[أديب] - سنة ١٩٣٥م.

١٤-[من بعيد] - سنة ١٩٣٥م.

١٥-[القصر المسحور] - سنة ١٩٣٦م.

١٦-[مع المتنبي] - سنة ١٩٣٦م.

١٧-[من حديث الشعر والنثر] - سنة ١٩٣٦م.

١٨-[على هامش السيرة] - ج٢ - سنة ١٩٣٧م.

١٩-[على هامش السيرة] - ج٣ - سنة ١٩٣٨م.

٢٠-[مستقبل الثقافة في مصر] - سنة ١٩٣٨م.

٢١-[مع أبي العلاء في سجنه] - سنة ١٩٣٩م.

٢٢-[الأيام] - ج٢ - سنة ١٩٤٠م.

٢٣-[دعاء الكروان] - سنة ١٩٤١م.

٢٤-[الحب الضائع] - سنة ١٩٤٢م.

٢٥-[لحظات] - سنة ١٩٤٢م.

٢٦-[أحلام شهرزاد] - سنة ١٩٤٣م.

٢٧-[شجرة البؤس] - سنة ١٩٤٤م.

٢٨-[صوت باريس] - ج١ ، ج٢ - سنة ١٩٤٣م.

٢٩-[صوت أبي العلاء] - سنة ١٩٤٤م.

٣٠-[جنة الشوك] - سنة ١٩٤٥م.

٣١-[حديث الأربعاء] - ج٣ - سنة ١٩٤٥م.

٣٢-[فصول في الأدب والنقد] - سنة ١٩٤٥م.

٣٣-[الفتنة الكبرى] - ج١ - سنة ١٩٤٧م.

٣٤-[ما وراء النهر] - سنة ١٩٤٧م.

٣٥-[رحلة الربيع] - سنة ١٩٤٨م.

٣٦-[مرآة الضمير الحديث] - سنة ١٩٤٨م.

٣٧-[المعذبون في الأرض] - سنة ١٩٤٩م.

٣٨-[الوعد الحق] - سنة ١٩٤٩م.

٣٩-[جنة الحيوان] - سنة ١٩٥٠م.

٤٠-[بين بين] - سنة ١٩٥٢م.

٤١-[ألوان] - سنة ١٩٥٢م.

٤٢-[الفتنة الكبرى] - ج٢ - سنة ١٩٥٣م.

٤٣-[خصام ونقد] - سنة ١٩٥٥م.

٤٤-[من هناك] - سنة ١٩٥٥م.

٤٥-[نقد وإصلاح] - سنة ١٩٥٦م.

٤٦-[أحاديث] - سنة ١٩٥٧م.

٤٧-[رحلة الربيع والصيف] - سنة ١٩٥٧م.

٤٨-[من أدبنا المعاصر] - سنة ١٩٥٨م.

٤٩-[مرآة الإسلام] - سنة ١٩٥٩م.

٥٠-[من أدب التمثيل الغربي] - سنة ١٩٥٩م.

٥١-[من لغو الصيف إلى جد الشتاء] - سنة ١٩٥٩م.

٥٢-[الشيخان] - سنة ١٩٦٠م.

٥٣-[خواطر] - سنة ١٩٦٧م.

٥٤-[الأيام] - ج٣ - سنة ١٩٦٧م.

هذا إلى مقالات صحفية - في ست مجلدات - جمعتها وطبعتها دار الكتب والوثائق القومية.. ومجلدان فيهما أوراقه ومراسلاته - جمعتهما ونشرتهما دار الكتب والوثائق القومية - ومجلد ضخم عن الوثائق السرية لطه حسين - حققه وقدم له الدكتور عبد الحميد إبراهيم -... وكتاب [من الشاطئ الآخر] - الذي ترجمه من الفرنسية عبد الرشيد

الصادق محمودي. والذي نُشر سنة ١٩٩٠م.. وكتاب [طه
حسين الشاعر الكاتب] لمحمد سيد كيلاني - والذي يضم
عددًا من أشعاره ومقالاته المبكرة.. وكتاب [الكتابات
الأولى] لطه حسين - التي حققها وقدم لها د. عبد الرشيد
الصادق محمودي - والذي نشر سنة ٢٠٠٢م.[1]

---

(١) انظر في هذه الترجمة: المقدمات والدراسات التي كتبها عن طه حسين:
د. سعيد إسماعيل علي، إبراهيم عبد العزيز، د. أحمد زكريا الشلق، د. رؤوف
عباس - في [تراث طه حسين - طبعة دار الكتب والوثائق القومية - ج١ - ج٦
- سنة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، سنة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، سنة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٣م،
سنة ١٤٢٤هـ سنة ٢٠٠٣م، سنة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م، سنة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
و [أوراق طه حسين ومراسلاته] ج١، ج٢ - إشراف ودراسة د. أحمد ذكريا
الشلق، د. محمد صابر عرب - طبعة دار الكتب والوثائق القومية سنة ١٤٢٨هـ
٢٠٠٧م. و [الوثائق السرية لطه حسين] تحقيق وتقديم: د. عبد الحميد إبراهيم
- طبعة دار الشروق سنة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م. ومحمد سيد كيلاني [طه حسين
الشاعر الكاتب] طبعة دار القومية العربية - القاهرة سنة ١٩٦٣م، وحسين محمد
بافقيه [طه حسين والمثقفون السعوديون] طبعة بيروت سنة ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.
و [الموسوعة العربية] طبعة دمشق سنة ٢٠٠٣م، و د. غالي شكري [ماذا يبقى من
طه حسين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م وسوزان طه حسين [معك] ترجمة: بدر
الدين عرودكي - مراجعة: محمود أمين العالم - طبعة المركز القومي للترجمة -
القاهرة سنة ٢٠٠٩م. وجمال أحمد عبد الحليم العسكري [الاتجاهات الدينية في
أدب طه حسين] ج١، ج٢ طبعة الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ٢٠٠٨م.

كثيرون هم الكُتّاب والمفكرون الذين أثاروا الجدل حول ما قدموه من أفكار..

لكن طه حسين [١٣٠٧-١٣٩٣هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] كاد أن ينفرد بأن كل حياته الفكرية - التي جاوزت نصف قرن - قد كانت بكاملها معركة فكرية شديدة الإثارة للجدل العنيف حول ما قدم الرجل من أفكار وآراء !.. بل إن الكثير من أفكاره وآرائه لا تزال مثيرة للجدل حتى بعد انتقاله إلى رحاب مولاه !.

ولقد كتبت حول طه حسين - الأديب والناقد والمربي والمفكر - عشرات الكتب وآلاف الدراسات والمقالات.. لكن.. ورغم كثرة هذه الدراسات، ظلت هناك ظاهرة غريبة - وربما فريدة - في هذه الدراسات.

فالكثرة الكاثرة من الذين تعصبوا لآراء طه حسين، وقدموا أنفسهم باعتبارهم تلاميذه الأوفياء قد وقفوا عند أفكاره التي مثلت مرحلة انبهاره بالنموذج الحضاري الغربي، وتبشيره بهذا النموذج الحضاري، وسعيه لإلحاق العقل الشرقي بالعقل الغربي.. فلا تجدوا أحدًا من هؤلاء «المريدين» إلا ويتغنى بما كتب طه حسين في هذه المرحلة من مراحل فكره، وخاصة كتابه [في الشعر الجاهلي] سنة ١٩٢٦م - الذي مثل قمة مجازفاته الفكرية وعدوانه على عدد من عقائد ومقدسات الإسلام.. وكذلك كتابه [مستقبل الثقافة في

مصر] سنة ١٩٣٨ م، الذي مثل قمة محاولاته إلحاق الشرق الإسلامي بالنموذج الحضاري الغربي، وإلزام أُمتنا أن تسير سيرة الغرب العلماني في الإدارة والحكم والتشريع، وأن تتقبل هذا النموذج الحضاري الغربي كله، حلوه ومره، خيره وشره، ما يُحب منه وما يُكره، ما يُحمد منه وما يُعاب !.

أي أن هؤلاء «المريدين - الدراويش» في «طريقة» طه حسين - لم يروا من فكر هذا الرجل إلا ما كتبه في مرحلة انبهاره بالغرب، التي كان فيها شبه «درويش.. ومريد» للعقل الإغريقي والروماني والفرنسي الحديث.. حتى لقد عميتْ أبصارهم وحُجبت بصائرهم وعقولهم عن التطورات الفكرية التي طرأت على فكر الرجل وآرائه وإبداعاته، والتي باعدت بينه وبين أفكار هذا الانبهار !.

وإذا كان هذا الموقف من «دراويش» طه حسين و «مريديه» والمتعصبين له غريباً وعجيباً.. فإن الأكثر في الغرابة والعجب أن يكون هذا هو ذات الموقف الذي اتخذه من طه حسين أشد خصومه وأكبر ناقديه !.. فلقد وقفوا - هم أيضاً - عند أفكاره التي قدمها إبان مرحلة انبهاره بالنموذج الحضاري الغربي، وركزوا جل هجماتهم على ذات الكتب التي تعلق بها «مريدوه»، وفي المقدمة منها كتاب [في الشعر الجاهلي] و كتاب [مستقبل الثقافة في مصر].. حتى لقد أخرجوا الرجل من الملة الدينية والملة الحضارية، بعد رحيله عن عالمنا، دون أن يبصروا التطور الفكري الذي تجسد في



إبداعات فكرية ناقضت مناقضة شديدة وحادة ما قدمه الرجل في مرحلة الانبهار.

لذلك كانت رسالة هذا الكتاب - الذي نقدم بين يديه - هي تلمس التطور الفكري الذي مر به طه حسين على امتداد عمره الفكري، وتتبع التطورات - وأيضا المتناقضات - التي مثلت مخاضاً فكرياً طويلا وعريضاً وعميقا أفضى بفكر هذا الرجل إلى الانتصار للإسلام، بعد أن أثار أكبر المعارك الفكرية وأخطرها في مرحلة انبهاره بالنموذج الحضاري الغربي، وتجاوزاته ومجازفاته وجناياته على الإسلام.

ولأن هذه هي رسالة هذا الكتاب: إنصاف طه حسين من أنصاره ومن خصومه جميعاً!.. فإننا.. بتحقيق هذه الغاية - سنخرج أنفسنا من دوائر «الاستنتاجات» و «التأويلات» لمقولات طه حسين.. لندع الرجل هو الذي يتكلم.. وسندع نصوصه هو كي تأخذ بأيدينا وعقولنا عبر هذه المسيرة الفكرية الطويلة، التي شهدت هذا التطور الفكري، عبر عشرات المنعطفات والتناقضات، لنصل - بل ليصل بنا الرجل - إلى المرفأ الذي رست عليه سفينته الفكرية، وفي المرحلة الأخيرة والختامية من حياته الفكرية، تلك التي انتصر فيها انتصاراً صريحاً وشديداً للإسلام الدين.. وللنموذج الحضاري الإسلامي - للعروبة والإسلام -..

ذلك «المرفأ»، الذي وصف فيه طه حسين شعورَه عندما وصل إليه، بأنه «شعور الغريب»، الذي يؤوب ويعود من غربته الغريبة والطويلة جداً إلى وطنه الذي أنشأ أمته، وكوّن

قلبه وعقله وذوقه وعواطفه جميعاً.. وطن العروبة والإسلام.. مدركاً لما بين الله وبينه من حساب عسير - على مرحلة الغربة الطويلة الغريبة عن وطنه -.. وراجيا أن يجعل الله من عسره يسرا»!.

نعم.. سنجعل نصوص طه حسين هي التي تحكي هذا التطور الفكري.. حتى لكأن عنوان هذا الكتاب هو: «هكذا تكلم طه حسين».. وذلك لتكون صفحاته أفعل في دعوة الفرقاء المختلفين حول طه حسين إلى كلمة سواء!..

* * *

ولأن هذه هي رسالة هذا الكتاب، فلن يجد فيه القارئ أثراً يذكر لما كتب الآخرون عن طه حسين - سواء منهم المتعصبون له أو المتعصبون عليه.. وإنما سيجد فيه القارئ نصوص طه حسين ذاته.. وخاصة تلك النصوص التي مثلت نماذج لمراحله الفكرية، وقضايا هذه المراحل، التي أثارت الجدل الشديد والمعارك الفكرية الكبرى، التي ملأت دنيا الفكر، وشغلت الناس بطه حسين على امتداد أكثر من خمسين عاماً.. هذه المراحل التي توزعتها حقب أربعة:

أولاها: بداياته الفكرية، قبل السفر إلى فرنسا سنة ١٩١٤م.. وهي التي يمكن أن تأخذ عنوان: [مرحلة الشيخ طه حسين].

وثانيتها: المرحلة التي عاد فيها من فرنسا «مبهوراً»

بالغرب الإغريقي والروماني والفرنسي.. والتي كان فيها «درويشاً» في عالم التغريب، تجاوزت فيها مجازفاته الفكر والحضارة إلى حيث اقترف العدوان على عدد من عقائد ومقدسات الإسلام.. ولقد امتدت هذه المرحلة لتشمل حقبة العشرينيات من القرن العشرين.

وثالثتها: تلك المرحلة التي امتدت من بدايات الثلاثينيات وحتى قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م.. وفيها كان التطور الفكري المتدرج والبطيء لطه حسين، عبر العديد من المنعطفات والمتناقضات..

ورابعتها: مرحلة الإياب الفكري لطه حسين.. الإياب الصريح والحاسم إلى أحضان العروبة والإسلام.. وهي المرحلة التي بدأت بارتباطه الوثيق بثورة يوليو ومعاركها الوطنية ضد الاستعمار الغربي.. وفي سبيل الهوية العربية والقومية العربية.. وفيها أفصح طه حسين عن إيابه الروحي إلى الإسلام الدين.. وعن قناعته الحضارية بأن العرب والعروبة هما مادة الإسلام.. ولقد آب طه حسين.. في هذه المرحلة الختامية - والعبرة بالخواتيم.. لا ليكون «درويشاً» على «الطريقة» الإسلامية - بعد أن كان - في مرحلته الثانية.. وبعض محطات مرحلته الثالثة - «درويشاً» على الطريقة الغربية.. وإنما عاد وآب ليمثل «عقلاً إسلامياً» متألقاً.. وليقدم نموذجاً من نماذج المراجعات الفكرية والتطور الفكري الذي طبع المسيرة الفكرية للعديد من كبار رجالات الفكر عبر تاريخنا الإسلامي القديم.. وفي جيل طه حسين..

الذي شهد انبهار كوكبة من أعلامه بالغرب الحضاري، عندما قارنوا ازدهاره بالتخلف العثماني، وعندما أخطأوا فحسبوا هذا التخلف العثماني على دين الإسلام.

تلك هي رسالة هذا الكتاب: أن يتحدث طه حسين بنصوصه هو، ليعلن عن تطوره الفكري، وعن مراجعاته الفكرية؛ كي ننصفه من المتعصبين له والمتعصبين عليه، على حد سواء.

آملين في طي صفحة هذا الجدل العقيم حول إبداعات هذا الرجل.. ليس - فقط - للاجتماع حوله على كلمة سواء.. وإنما - فوق ذلك - لسحب البساط من تحت أقدام أسرى التغريب والعلمانية والغزو الفكري، الذين يتمسحون بهالات هذا الرجل العظيم.. وليتعلم الإسلاميون المنهاج العلمي في دراسة تاريخ الأفكار، فيستردون الرموز، بدل التفريط فيها.. وليزداد ثراء الساحة الفكرية الإسلامية، بدلاً من المنهاج الإقصائي الأخرق، الذي يسلم رموز الفكر الإسلامي إلى غلاة التغريبيين والعلمانيين.

تلك هي رسالة هذا الكتاب.. ندعو الله - سبحانه وتعالى - التوفيق في القيام بأمانتها.. كما نسأله أن ينفع به، وأن يتقبله خالصاً لوجهه الكريم، ولترشيد حياتنا الفكرية - إنه خير مسئول وأكرم مجيب،

دكتور / محمد عمارة

٢٧ رجب سنة ١٤٣٥ هـ

٢٦ مايو سنة ٢٠١٤ م

مرحلة الشيخ طه حسين (١٩٠٨ - ١٩١٤م)

في هذه المرحلة الأولى من مراحل فكر طه حسين - وهي التي بدأت بالتحاقه بالجامعة المصرية الأهلية بعد حرمانه من نيل شهادة العالمية الأزهرية.. والتي تنتهي بسفره إلى فرنسا سنة ١٩١٤م مبعوثاً من الجامعة المصرية لنيل الدكتوراة من جامعة السوربون.

في هذه المرحلة، يبدو طه حسين مترددا - في الهوية الحضارية لمصر - بين مذهب «حزب الأمة» ومفكره أحمد لطفي السيد [١٢٨٩ - ١٣٨٢هـ - ١٢٧٢ - ١٩٦٣م] الذي يدعو إلى الوطنية المصرية الرافضة للعروبة القومية والانتماء الحضاري الإسلامي... وبين اتجاه «الحزب الوطني» - حزب مصطفى كامل باشا (١٢٩١-١٣٢٦هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م) - الذي كان يقوده بمصر - يومئذ - المجاهد المجدد الشيخ عبد العزيز جاويش (١٢٩٣-١٣٤٧ هـ ١٨٧٦-١٩٢٩م) ذي الهوية الإسلامية، والمدافع عن الجامعة الإسلامية والخلافة الإسلامية.. ففي السياسة كان طه حسين مع «حزب الأمة».. وفي الفكر الإسلامي كان مع «الحزب الوطني».

لقد التقط لطفي السيد طه حسين «المتمرد على مناهج الدراسة الأزهرية، وفتح له أبواب الكتابة في (الجريدة) لسان حال «حزب الأمة» - مستفيداً من علاقة طه حسين بأسرة عبد الرازق - التي كانت من أعمدة هذا الحزب - فكتب طه حسين داعياً إلى الوطنية المصرية - فقط - مجردة من

العروبة والإسلام.. وزاعماً أن «الأرض» هي وحدها مصدر الجسم والنفس والأخلاق جميعاً.. ومنكراً أن يكون الدين جامعة للحياة الدنيوية الصالحة، حتى لقد ادعى أن المسلمين - تاريخياً - قد اتخذوا الجنس، لا الدين، جامعة لهم.. معمماً هذا الادعاء حتى على الخلافة الراشدة، ممثلة في عمر ابن الخطاب!.

نعم.. ذهب طه حسين، تحت تأثير لطفي السيد، هذا المذهب، فكتب في (الجريدة) يقول:

«إن الوطنية هي الجامعة الوحيدة المشتقة من الطبيعة، الواقعة تحت الحس، وإن غيرها من الجامعات ليس له ما لها من ظهور الأصل وثبوته، ومن وضوحه وصراحته.. وإذا كانت مصر قطعة من الأرض، فلا شك أني خلقت منها، واغتذيت بهوائها ومائها وثمراتها، واستعنت بحرارتها وضيائها على النشوء والنمو، وعلى الحياة الصالحة والبقاء الحميد، فمن هذه الأرض وجوها يتألف جسمي، وتتكون أخلاقي ونفسي»[٢].

«وإن الدين» على ما فيه من إصلاح للناس، وإقامة لحضارتهم وعمرانهم، لا يمكن أن يكون جامعة منضبطة للحياة الدنيوية الصالحة».. وإن المسلمين في عصورهم الصالحة التي ارتقوا فيها إلى الأوج وارتقى معهم الدين، لم يستطيعوا أن يتخذوا الإسلام جامعة سياسية تقوم عليها دولتهم وملكهم.. وإن عمر بن الخطاب.. رضي الله عنه.. وهو أحق خلفاء المسلمين

---

(٢) (الجريدة) - في ٣٠/١/١٩١٣م.

بأن يكون الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة، لم يكن يبني سياسته إلا على أنه عربي يحكم أمة عربية، ويريد أن تسود هذه الأمة على غيرها من أمم الأرض.. ولذلك حرص على استقلال العرب في حياتهم، وود لو استطاع أن يمنع العرب من التحضر.. وأمر أن تخط لهم مدينة الكوفة.. ولم يرض أن يقسم بين جنده أرضاً زراعية يقيمون فيها[٣].

هكذا سخر طه حسين قلمه لسجن مصر في قفص «أرض الإقليم» و «القطرية»، وعزلها عن محيطها القومي العربي وهويتها الحضارية الإسلامية، بل وذهب إلى مسخ الإسلام، مدعياً انحيازه لهذا المذهب، متجاهلاً أن هذا الإسلام قد نظر للعرب باعتبارهم مادة الإسلام، وأن عمر بن الخطاب إنما كان يلح على أن العزة إنما هي بالإسلام، وأن المدن التي مصَّرها - الكوفة والبصرة والفسطاط - لم تكن «جيتو» للأمة العربية، وإنما كانت معسكرات للجند، الذين أراد لهم عمر أن يظلوا على خشونة الجند لا يحترفون غير الجندية، ولا يذوبون في الحياة المدنية - المترفة، ليظلوا القوة الضاربة المدافعة عن الإسلام وأمة الإسلام.

وفي ذات الوقت الذي أطل فيه طه حسين من (الجريدة) متقمصاً مذهب «حزب الأمة» وفيلسوفه لطفي السيد.. كان يطل من صحافة «الحزب الوطني» - تحت قيادة الشيخ عبدالعزيز جاويش- فيكتب كمفكر إسلامي، يسعى إلى

(٣) المصدر السابق، في ١١ / ٣ / ١٩١٣م.

تجديد الفكر الإسلامي، ضابطاً كتاباته بضوابط الإسلام.. فنراه يكتب - في مجلة (الهداية) - عن المرأة وعن الزواج سلسلة مقالات ملتزمة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، تبرز فيها ملكة التجديد والاجتهاد.. فيقول:

«إن شأن القرآن الكريم «في أكثر أحكامه» ألا يأتي بالأصول والقواعد مرسلة بل يتبعها، في أكثر الأحيان بعللها ونتائجها، وتلك هي المزية الخاصة التي تتفق لقانون من القوانين».

يقول علماء التشريع: إن القانون إنما يقبله الناس ويطمئنون إليه إذا اشتمل على قليل أو كثير من علل الأحكام. وهذا الرأي الذي عرفه الناس في هذا العصر الحديث قد سبق إليه القرآن الكريم منذ ثلاثة عشر قرناً، فهو كتاب عبادات وقانون، وحكمة وتشريع.. وحسبك بهذا ميزة القرآن على غيره من كتب القوانين والتشريع»[٤].

وطه حسين - هنا - يرفض علمانية «حزب الأمة» وفيلسوفه لطفي السيد.. بل ويذهب إلى ضرورة التزام المسلمين بنشر الإسلام والتوحيد، ومحو الشرك «لأن التوحيد هو ملاك الفضائل وقوام الأخلاق الحسنة، وإن الشرك هو مصدر النقائص وجرثومة كواذب الأخلاق.. ولذلك فإننا ملزمون بنشر الإسلام ومحو آثار الشرك»[٥].

(٤) مجلة [الهداية] - سنة ١٩١١.
(٥) المصدر السابق.

وعندما يكتب الشيخ طه حسين عن إصلاح أحوال المرأة يعلن أن معايير هذا الإصلاح هي ثوابت الدين، التي يجب ألا نتعدى حدودها - «فحدنا - في هذه المسألة - إنما هو دين الله الذي أنزله شفاء لأدواء الأفراد والأمم، وإصلاحا للفاسد من أمورهم، فعلينا أن نقف عنده و لا نتعدى حده :

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(البقرة : ٢٢٩)

على هذا الأصل الصحيح نقول: إن رقي المسلمين رهين بأن يرجعوا إلى أصول دينهم الذي أهملوه، وكتابهم الذي أغفلوه، فيمسكوا بأسبابها، ويتعلقوا بأهدابها، وعلى غير ذلك لا تقوم لهم قائمة، ولا يصلح لهم جيل»[٦].

بل لقد ذهب الشيخ طه حسين - في مقالاته بمجلة [الهداية] - إلى تحريم زواج المسلم من الكتابية الأوروبية، لما يمثله ذلك من مخاطر على دين الأسرة والتربية الإسلامية للأبناء!.. فكتب يقول:

« إنه مما لا شك فيه أننا الآن أصبحنا في عصر غير العصور الماضية، تغيرت أخلاقنا من حسن إلى قبيح، ومن جميل إلى رديء.. ذهبت مقوماتنا وضعفت أنفسنا، وزالت مميزاتنا الجنسية، وأصبح من اليسير أن تندمج طباعنا في غيرنا من الأجانب.. لذلك، لا شك عندي في أنه يجب علينا أن نحتاط كل الاحتياط في استعمال هذا الحكم، أي إباحة تزوج

---

(٦) المصدر السابق.

المسلم بالكتابية.. ولست أرى عليَّ من بأس إن قلت إنه الآن حرام ممقوت.

كثيرٌ منا يتزوج الكتابيات من أهل أوربا رغبة في جمالهن وما يشاع من علمهن وأدبهن، إلى غير ذلك. ولكن ماذا تكون النتيجة لهذا الزواج؟ لا شيء إلا أن يصبح الرجل وبيته وأبناؤه وبناته أوربيين في كل شيء، اللهم إلا أفراد أفذاذ لا يعول عليهم في الأحكام العامة لأنهم قليلون.

إذن فأستطيع أن أحظر تزوج المسلم من الكتابية من الفرنج، أو على الأقل أضيق دائرته تضييقاً شديداً لا سيما إن أضفت إلى ما سبق فساد الدين في نفوس الفرنج فساداً مطلقاً حتى أشرف على الانمحاء».

هكذا تحدث الشيخ طه حسين في هذه المرحلة الأولى من مراحل فكره.

فهو مذبذب بين فكر «حزب الأمة» وفيلسوفه لطفي السيد، في الوطنية التي تسلخ مصر عن العروبة والإسلام.. وبين التجديد الإسلامي المضبوط بثوابت القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.. داع إلى الجهاد لنشر التوحيد وسحق الشرك، وإلى الإصلاح الاجتماعي الملتزم بمعايير الإسلام.

وهو، في إسلامياته هذه، لا يأتي على ذكر القرآن إلا مقروناً وموصوفاً «بالكريم».. ولا يذكر النبي إلا مقروناً بالصلاة والسلام عليه.

وهو صاحب موقف وطني، عبر عنه شعراً - في صحيفة (مصر الفتاة) - عندما عارض مشروع الحكومة المصرية بقيادة بطرس غالي باشا (١٢٦٢-١٣٢٨هـ ١٨٤٦-١٩١٠م) مد امتياز شركة قناة السويس الفرنسية[٧]... وعندما هنأ الشيخ عبد العزيز جاويش بمناسبة خروجه من سجن الاحتلال سنة ١٩٠٩م.. فقال:

الآن حق لك الثناء فلتحي ويحي اللواء[٨]

ولتحي مصر وأهلها شاء العدى أو لم يشاءوا

إن كان ذكرك للجلاء يسوء فليكن الجلاء.

أو كان صوت الشعب عندهمو هو الداء العياء

فليعل صوت الشعب حتى يرجعوا من حيث جاءوا[٩]

أما الشيخ طه حسين الناقد الأدبي، فلقد أفصحت كتاباته - منذ هذه المرحلة المبكرة من حياته - عن النزعة التي نريد لفت الأنظار، كي يكون محور الانتباه، المثير دائماً للجدل، يشهد على ذلك الأسلوب الشاذ الذي لجأ إليه في التهجم على كبار أدباء عصره - من المنفلوطي (١٢٩٣ - ١٣٤٢

(٧) (مصر الفتاة) في ٥-١١-١٩٠٩م.
(٨) (اللواء): صحيفة الحزب الوطني.
(٩) [مصر الفتاة] في ٢٣-١١-١٩٠٩م.

هـ ١٨٧٦ - ١٩٢٤ م) إلى الرافعي (١٢٩٨ - ١٣٥٦ هـ - ١٨٨٠ - ١٩٣٧م) إلى حافظ إبراهيم (١٢٨٧ - ١٣٥١ هـ - ١٨٧١ - ١٩٣٢م) - وهو تهجم بلغ أحياناً حد السباب والتجريح !

تلك هي الصفحة الأولى والمرحلة الأولى من المراحل الأربع التي مثلت الحياة الفكرية لطه حسين[١٠] .

---

(١٠)لقد رجعنا في مادة هذه المرحلة من كتابات طه حسين إلى كتاب (طه حسين الشاعر الكاتب) لمحمد سيد كيلاني - الطبعة الأولى - دار القومية العربية للطباعة والنشر - سنة ١٩٦٣م - ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٣٦ ، ٢١ .

ذلك إن المشروعات الكبيرة التي أنجزتها دار الكتب والوثائق القومية لجمع ونشر [تراث طه حسين] و[أوراق طه حسين ومراسلاته] والتي طبعت في ثمان مجلدات ضخمة - والتي خطط لها وأشرف عليها نفر من أنصار طه حسين - قد تجاهلت مقالاته في المرحلة الأولى من حياته - وتكرر نفس الخطأ - ولا نقول الخطيئة - عندما تم تجاهل جميع مقالاته في حقبة العشرينيات - التي مثلت قمة تغربه وانبهاره بالغرب وتهجمه على الإسلام .. ولقد رجعنا إلى هذه المجلدات الثماني التي أصدرتها دار الكتب في سنوات ٢٠٠٢ ، ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٥ ، ٢٠٠٦ ، ٢٠٠٧ وغيرها من الأعمال التي نشرت أوراق طه حسين ، مع المؤلفات الفكرية لطه حسين ، وذلك بحثاً عن معالم فكره عبر مسيرته الفكرية الطويلة .



مرحلة الانبهار الشديد بالغرب (١٩١٩-١٩٣٠م)

لقد سافر طه حسين إلى فرنسا سنة ١٩١٤م- مبعوثًا من الجامعة المصرية - للحصول على الدكتوراه التي حصل عليها سنة ١٩١٧م في [فلسفة ابن خلدون الاجتماعية].

ومن فرنسا عاد إلى مصر مبهورًا بكل ما هو غربي، وساعيًا بكل ما يملك وبكل الطرق إلى إلحاق مصر بهذا النموذج الحضاري الغربي، حتى لكأنه «المريد .. والدرويش» في «الطريقة الحضارية الغربية»!.

عاد مبهورًا بالنموذج الحضاري الغربي- ذي الجذور اليونانية الرومانية - وداعية للتماهي في هذا النموذج الحضاري. وعلى امتداد عقد العشرينيات مثل الرجل النقيض المضاد لما كان عليه في مرحلة « الشيخ طه حسين».

- فهو - في السياسة - مع عدلي يكن باشا [١٢٨٠-١٣٥٢هـ ١٨٦٤- ١٩٣٣م] و«حزب الأحرار الدستوريين» ضد سعد زغلول باشا [١٢٣٣-١٣٤٦هـ - ١٨٥٧-١٩٢٧م] و«حزب الوفد» - حزب الثورة والكفاح من أجل الاستقلال الوطني وجلاء الاحتلال الإنجليزي عن وادي النيل.

- وهو في سنة ١٩٢٥م - المشارك والمدافع عن علمنة الإسلام - كما جاءت بكتاب [الإسلام وأصول الحكم]-.

- وهو في سنة ١٩٢٦م يبلغ قمة الاستفزاز التغريبي،

عندما يطبق غلو الشك - بل الشك العبثي- على المقدسات الإسلامية- فضلا عن الراوية والروايات والرواة، والتاريخ والمؤرخين- كما حدث في كتابه [في الشعر الجاهلي].

- وهو مع فرعونية مصر والمصريين ضد الهوية العربية.. أي أنه المتصدي لتجريح الانتماء الحضاري المصري للعروبة والإسلام.

لكن.. ولفهم هذا الانقلاب الذي أصاب الشيخ طه عندما ذهب إلى باريس، لابد من الإشارة إلى زواج الرجل - الذي كان يُحرم زواج المسلم بالكتابية الأوربية- مخافة هيمنتها الدينية والقيمية والحضارية على الزوج والأسرة- زواج هذا الرجل بفتاة فرنسية، لقيها أول مرة- في مونبلييه في ١٢ مايو ١٩١٥م.. فكانت عينه التي يقرأ بها.. ويده التي يلمس بها.. ورجله التي يسعى بها.. وقلبه ووجدانه اللذين يحس بهما في غربته التي عاشها في باريس.. وفي «محبسه» الذي ماثل فيه حكيم المعرة- أبا العلاء المعري [٣٦٢-٤٤٩هـ ٩٧٣- ١٠٥٧م].

وعندما وقع حب هذه الفتاة- الفرنسية المسيحية- في قلب طه حسين، وصارحها بهذا الحب، كان رفضها الخشن التعبير عن «المغايرة الكاملة» بينها وبينه.. نعم.. هي تقرأ له، وربما تعطف عليه. لكنه بالنسبة إليها: «أجنبي.. ومسلم.. وأعمى»!!

وهنا كان الدور الذي لعبه عمها القسيس، الذي أقنعها بالزواج من هذا (الأجنبي- المسلم- الأعمى).. ربما

لمقاصد يرجوها من وراء الاحتواء لهذا «المشروع الفكري» الذي سيتم غرسه على ضفاف النيل !.

فبعد نزهة منفردة أمضاها هذا القس مع طه حسين.. أقنع ابنة أخيه – سوزان– بالزواج من طه حسين.. وكتبت الزوجة: «وبقي طه يردد حتى النهاية: لقد كان عمك القس أحب رجل إلى نفسي».(11)

وحتى نفهم دور هذا الزواج – إلى جانب الأساتذة الفرنسيين– في الانقلاب الفكري الذي أصاب الشيخ طه حسين، يحسن بنا أن نتأمل هذه العلاقة الحميمة التي امتدت خمسين عامًا، والتي صورتها زوجته أدق تصوير في كتابها[معك] وكيف جسدت هذه العلاقة «الغربة» التي عاشها الرجل عندما احتضنته سيدة فرنسية، احتفظت بلغتها ودينها وذوقها وعلاقاتها وهويتها الحضارية.. حتى لقد أبت أن تتعرب – وهي زوجة عميد الأدب العربي لنصف قرن !–.. بل وأطلقت على ابنتها «أمينة» اسما فرنسيًا تنادى به –«مار جريت»– وعلى ابنها «مؤنس» اسمًا فرنسيًا ينادى به–كلود– .. وانتهى الأمر بكلود هذا إلى التنصر، والموت نصرانيًا في فرنسا !.

لقد أحبت سوزان طه.. ورعته .. لكن الكلمات التي عبرت بها عن رفضه ساعة صارحها بحبه– وقبل نجاح عمها

---

(11) سوزان طه حسين [معك] ص٢٤ .ترجمة : بدر الدين عرودكي. مراجعة: محمود أمين العالم. طبعة المركز القومي للترجمة. القاهرة سنة ٢٠٠٩م.

القسيس في إقناعها وزواجهما- في ١٩ أغسطس ١٩١٧م- .. كلمات: «أجنبي.. ومسلم.. وأعمى» قد ظلت محلقة في سماء حياتهما طوال هذه الحياة!.

ولقد صور هذا الكتاب الذي كتبته هذه الزوجة عن زوجها، خمسين عامًا من الولاء والانتماء والحنين لكل ما هو أوروبي: الحضارة .. والتاريخ .. والآثار.. والمدن.. والشوارع.. والحدائق.. والفنادق.. والممرات.. والشرفات.. والبحيرات.. والأشجار.. والأزهار.. والكنائس والكاتدرائيات والقساوسة والكاردينالات.. والنواقيس.. والتراتيل.. والمفكرين والأدباء ..إلخ ..إلخ.. بينما مصر- في هذا الكتاب- لا تعدو «محطة» يمر بها الأوروبيون المعجبون بطه حسين وزوجته سوزان!.

ولتلخيص سلطان هذه الزوجة - التي ظلت أجنبية- على عقل الرجل وقلبه وبيته، يكفي أن أورد شهادة العالم المغربي الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازى- والتي سمعتها منه مباشرة-.. فعندما دعا الملك محمد الخامس [١٣٢٧- ١٣٨١هـ - ١٩٠٩- ١٩٦١م] طه حسين لزيارة المغرب، كان الدكتور التازي هو المعيّن من قبل الملك مرافقًا لطه حسين، وفي أحد أيام الزيارة طلب طه حسين من التازي أن يذهب به إلى مسجد القرويين ليصلي ركعتين.. لكنه طلب منه كتمان أمر هذه الزيارة وهذه الصلاة عن «المدام»!.

صحيح أن بيت طه حسين قد تجاورت فيه - تحت ظلال السماحة الإسلامية- الكتب الدينية الثلاثة: التوراة والإنجيل

والقرآن.. وكما تقول زوجته :«كان سكرتيرك-[الذي كان - بالمناسبة - دائما مسيحيا !!] يقرأ لك القرآن والتوراة، كتابان كانا دومًا ضمن حقائبنا مع كتب أخرى كنا نحملها.. وكان بوسعي أن أردد صلاتي، على حين تستمع إلى القرآن الكريم في الغرفة المجاورة.. وكنتَ تقرأ التوراة، وكنتُ تحدث عن يسوع.. وفي القناطر، حملت - ذات مساء - بدية عيد ميلادي، وكانت عبارة عن تسجيل لقُدَّاس- من قام سي- لباخ».[١٢]

لقد صار الرجل «رهن المحبسين» - زوجة فرنسية مسيحية.. وسكرتير مسيحي- من خلالهما يرى الدنيا، بينما - وللمقارنة- كان سعد زغلول- المتمتع بكل حواسه - وحتى بعد أن صار زعيم الأمة وإلى أن توفي- سكرتيره الخاص الذي يحضر له الكتب، ويحضر له ما يريد، ويملي عليه الرسائل والمكاتبات شيخ أزهري، خريج مدرسة القضاء الشرعي- ورئيس تحرير مجلة القضاء الشرعي- الشيخ محمد إبراهيم الجزيري..

وعلينا -أيضًا- أن نتذكر كلمات طه حسين نفسه، قبل أن يسافر إلى فرنسا، ويتزوج هذه الزيجة، وكيف كتب يقول: «لقد ذهبت مقوماتنا، وضعفت أنفسنا، وزالت مميزاتنا الجنسية، وأصبح من اليسير أن تندمج طباعنا في طباع غيرنا من الأجانب، لذلك يجب علينا أن نحتاط كل الاحتياط في

(١٢)- المصدر السابق ص ١٥، ٣٤، ١٧٤.

تزوج المسلم بالكتابية الأوربية.. ولست أرى عليّ من بأس إن قلت إنه الآن حرام ممقوت.. لأن النتيجة هي أن يصبح الرجل وبيته وأبناؤه وبناته أوربيين في كل شيء»!

لكن الأقدار قد قضت أن يصنع طه حسين ما سبق ورآه «حرامًا ممقوتا». فعاد من فرنسا مبهورًا بكل ما له علاقة بالفكر الغربي، يزكي هذا الانبهار بيت هو «أوربي في كل شيء».. كما أصبح الرجل رهين المحبسين: زوجة مسيحية وسكرتير مسيحي».

* * *

اليونان قادة الفكر:

لقد عاد طه حسين من فرنسا إلى مصر سنة ١٩١٩م مبهورًا بكل ما هو غربي.. ثائرا على كل ما هو شرقي..

- ففي السياسة: اختار أن يكون لسان حال أحزاب الأقليات - التى تنكرت لمقاصد ثورة ١٩١٩م.. وليكون المهاجم - بل المتهجم- على حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول- حتى لقد حققت معه النيابة العامة سنة ١٩٢٤م بسبب هذا التهجم على زعيم الأمة سعد زغلول.

- وفي الفكر: عاد رافضًا لمشروع التجديد والإحياء الإسلامي الذي كان يمثله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦- ١٣٢٣هـ ١٨٤٩- ١٩٠٥م] بعد أن كان معجبًا به كل الإعجاب.. وكما تقول زوجته:

«في يوليو ١٩٢٢م كان الجميع منهمكين في الإعداد

لتخليد ذكرى الشيخ محمد عبده، وكان طه يسهم في ذلك، ولكنه يقرر ألا يلقي كلمة في هذه المناسبة .. وقال: إن أفكاري لا ترضى أحدًا. إنني أرى فيه مجددًا عظيم الأهمية، لكنه حمَل نصوص الإسلام أكثر مما تتحمل كي يجعلها تتفق مع العلم الحديث».(١٣)

فلم يعد مشروع الإحياء الإسلامي - بنظر طه حسين- صالحًا.. بل لقد أخذ يتهم الإسلام بالتناقض مع العلم الحديث!

«كان الشيخ الرئيس ابن سينا [٣٧٠- ٤٢٨هـ ٩٨٠- ١٠٣٧م] وهو الخبير بالفكر اليوناني والفلسفة اليونانية - قد أدرك أن المبالغين في الإعجاب بهذه اليونانيات (الظانين أن الله لم يهد إلا اليونان، ولم ينل رحمته سواهم، هم عوام، وأنهم إنما حدث لهم ذلك عن غفلة وقلة فهم.. وأن من يرد الفلسفة الحقة فعليه بفلسفة المشرقيين.. وليس بفلسفة اليونان» !(١٤)

لكن طه حسين - الذي أسلم عقله في الجامعة المصرية وفي فرنسا لكوكبة من المستشرقين، عمل أكثرهم على إحداث الهزيمة النفسية بالمسلمين، لإخضاع الشرق للغرب، بتأليه اليونان وجعلهم البداية والنهاية في الفكر العالمي، قد ابتلع

---

(١٣) المصدر السابق ص٤٨.

(١٤) نلينو [محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية]- بحث منشور بكتاب د.عبد الرحمن بدوي [التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية] ص٢٧٧- هامش (١) طبعة القاهرة ١٩٦٥م.

هذا الطعم الاستشراقى دون أية تحفظات.. وهكذا عاد إلى مصر من فرنسا «درويشا» في «الطريقة اليونانية» ! فنشر كتابه [قادة الفكر] سنة ١٩٢٥م.. ليعلن فيه – بلسان العاشق المتبتل في «محراب اليونان»:

-أن قادة الفكر العالمي، عبر التاريخ، ليس فيهم إلا من هو غربي.

– وأن الفكر الإنساني قد بدأ بالفلسفة اليونانية – بعد الشعر اليوناني.

– وأن ظهور المسيحية والإسلام – بالشرق – في العصور الوسطى– لم يكن إلا جملة معترضة، عادت –بعدها– السيادة للفلسفة اليونانية في العصر الحديث.

وهكذا بدأت الإنسانية باليونان، ثم عادت أخيرًا إلى اليونان.. مع تميز العصر الحديث بالمطبعة، التي أتاحت تجاور الشعر والفلسفة والسياسة والعلم والدين في عالم اليوم.

وفي هذا الكتاب –[قادة الفكر] – أخذ طه حسين يفصل في مبالغات عشقه لليونان:

– «فإلى تاريخ اليونان ترجع الحضارة الإنسانية الحديثة والقديمة».

– ولقد ظهر العقل الإنساني في العصر القديم مظهرين مختلفين:

أحدهما : يوناني خالص، هو الذى انتصر وهو الذي يسيطر على الحياة الإنسانية اليوم.

والآخر: شرقي، انهزم أمام المظهر اليوناني، وهو الآن يلقي السلاح ويسلم للمظهر اليوناني تسليمًا".

- «وإن الحياة اليونانية، التي خضعت للشعر فى أول أمرها، ثم خضعت بعد ذلك للعقل،كانت أخصب حياة عرفها الإنسان في العالم القديم»!.(١٥)

نعم.. عاد طه حسين من فرنسا لينشر هذا (الفكر) وليدرسه لطلابه بالجامعة المصرية «طالبًا من الشرق الاعتراف بالهزيمة أمام الغرب اليوناني، وإلقاء السلاح، وأن يسلم للمظهر اليوناني تسليمًا»!.

-وحتى عندما عرض طه حسين - في كتابه هذا- لفلسفة أفلاطون [٤٢٧- ٣٤٧ ق.م] المليئة بالغرائب والعيوب- والتي تقول:

- « إن كل ما يكون الفرد وشخصيته يجب أن يزول».

- «وتجب أن تمحي الملكية».

- « ويجب أن تزول الأسرة، فلا زوجية ولا أبوة، أي يجب أن تكون المرأة خطًا شائعًا بين أفراد الطبقة جميعًا، تشرف الحكومة على توزيعه بين هؤلاء الأفراد. وإنما الأطفال

---

(١٥)- طه حسين [قادة الفكر] ص ١٤، ٣٧، ٣٨. طبعة الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ٢٠١٤م.

جميعًا أبناء الدولة، تغذيهم وتقوم على تربيتهم وتنشئتهم حتى يبلغوا سن الرشد ويندمجوا في الجيش، وهي لا تربيهم جميعًا، أو قل لا تحتفظ بهم جميعًا، وإنما تحتفظ منهم بمن تستيقن أنه نافع للدولة يستطيع أن يدفع عنها حقًا، وإذا فالمرضى من الأطفال والذين ساء تكوينهم أو أصابتهم العاهات يجب أن تنبذهم الدولة نبذا»[١٦].

حتى بعد عرض طه حسين لهذا «العوار الفلسفي» لا نرى منه نقدًا ولا رفضًا.. بل ولا حتى صمتًا. وإنما نرى منه ثناء العاشق لكل ما هو يوناني، فيقول: «إن آثار أفلاطون كلها آيات، لا بالقياس إلى الأدب اليوناني وحده، بل بالقياس إلى الأدب الإنساني كله، سواء منه القديم والحديث»[١٧].

-أما أرسطو [٣٨٤، ٣٢٢ ق.م] الذي تجاوز المسلمون منطقه الصوري، بالاستقراء والمنهج التجريبي.. بل وتجاوزته الفلسفة الغربية الحديثة، فإن طه حسين يقدمه إلى تلاميذه وقرائه، فيقول:

«إن اسم أرسطو هو من الأسماء الخالدة التي قد تكون أشد من الدهر قدرة على البقاء[!!] . لقد استقصى في المنطق قوانين العقل الإنساني في البحث والتفكير على اختلاف درجاتهما وأطوارهما، وهذه القوانين ثابتة لا تتغير، ملائمة للإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث إنه شرقى أوغربى،

(١٦) - المصدر السابق ص ١١٠، ١١١.
(١٧) - المصدر السابق ص ٥٠



ولا من حيث إنه قديم أو حديث.. وقد يتطور العقل الإنسانى فيشتد تأثره بناحية من أنحاء البحث دون ناحية أخرى، ولكن هذا لا يستتبع إلغاء قانون من القوانين التى استكشفها أرسطو، وإنما يستتبع تقديم بعض هذه القوانين على بعض..

وكما أن منطق أرسطو خالد، فأدبه خالد أيضًا، ونريد بهذا الأدب قوانين البيان التي استكشفها في العبارة والشعر والخطابة. فهذه القوانين باقية خالدة، لأنها الصورة الطبيعية لتعبير الإنسان عن آرائه، كما أن قوانين المنطق هي الصورة الطبيعية لتكوين هذه الآراء».(١٨)

هكذا رأى طه حسين أرسطو «العقل الذي لم تعرف الإنسانية مثله بعد.. والأشد من الدهر قدرة على البقاء»!

-وإذا كان قد جهل النقد الإسلامي للتراث اليوناني، والذي أسهم فيه أئمة، منهم الإمام الشافعي [١٥٠-٢٠٤هـ - ٧٦٧-٨٢٠م] وابن سينا، وابن تيمية [٦٦١- ٧٢٨هـ ١٢٦٣- ١٣٢٨] وابن الوزير[٨٤٠هـ ١٤٣٦م].. فما كان يجوز له أن يجهل النقد الغربي الحديث لتراث اليونان،، والذى جاء فيه: إن العقل اليوناني الإغريقى عقل تأملي. يرتاب ويزدري، ويتجنب الخبرة الملموسة والعمل الذي يتطلب الملاحظة المكثفة، مثلما ينكر على الرجل الحر العمل اليدوي الموكول للعبيد فقط في الحقول متمما بذلك تحليقه شطر مملكة الأفكار العامة والقوانين، لذا فإن اليونانى يذعن للصيغ الفكرية الهندسية المجردة، ولأشكال الفضاء

---

(١٨) - - المصدر السابق ص١٣٥، ١٣١، ١٣٢

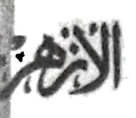
المثالية، في الوقت الذي يترك مزاولة الأعمال الحسابية إلى البائع في السوق.. وإن الفلك والفيزياء، ونظرية الموسيقى، والكيمياء، والطب، وعلم الحيوان والنبات اليونانية، تبقى على الراجح فلسفية، وكذلك يونانية المنطق. لقد كانت الحقيقة لدى الحس اليوناني المتأمل، ليس مما تعده الحاسة واقعا، بل واقعا عقليا فقط».[١٩]

لم ير طه حسين شيئا من ذلك، ولم يكلف نفسه أن يقرأ ما كتبه علماء المسلمين من «الشكوك» على ما كتب اليونان وإنما عاد من فرنسا «درويشا» في «الطريقة اليونانية» طالبا من العقل الشرقي المسلم-على حد تعبيره- «الاعتراف بالهزيمة أمام المظهر اليونانى، وإلقاء السلاح، وأن يسلم للمظهر اليونانى تسليما»!

ولأن طه حسين ما كان يستطيع تجاهل دور الدين.. الإسلامي والمسيحي في إعادة قيادة الفكر إلى الشرق «طوال القرون الوسطى» فلقد اكتفى بدعوى أن ذلك لم يَعْدُ «جملة معترضة» في تاريخ الفكر، الذى بدأ يونانيا، والذي عاد الآن يونانيا.. وبعبارته: «فلقد قدر الله وأراد أن تسترد الفلسفة والسياسة قيادة الفكر مرة أخرى، وقدر للإسلام والمسيحية أن يدعا قيادة الفكر بعدما استأثرا بها طوال هذه القرون الوسطى.. ذلك أن هؤلاء الفلاسفة من اليونان كانوا أرقى من الأجيال التى عاشوا فيها، وكانوا قد سبقوا هذه الأجيال

---

(١٩)- د. سيجريد هونكه [العقيدة والمعرفة] ص٣٣، ١١١. ترجمة: عمر لطفي العالم. طبعة دمشق ١٩٨٧م وانظر - كذلك - كتابنا [عوامل امتياز الإسلام] ص٢١- ٢٣. طبعة دار السلام القاهرة ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.



إلى حيث لم تستطع أن تدركهم، ولم يكن بد من أن تنتظر فلسفتهم قرونا طوالا، حتى يتم نضوج العقل الإنساني فيحسن إساغتها واستثمارها. وهذا هو الذي كان: لم تكد تظهر هذه الفلسفة وتشيع بين المحدثين حتى أتت ثمرها طيبا منتجا، وإذا هي توجد نفرا من الفلاسفة والساسة تولوا قيادة الفكر حتى انتهوا به إلى الثورة الفرنسية ثم إلى ما نحن فيه الآن». (٢٠)

-ثم يصل بنا طه حسين إلى بيت القصيد: الاعتراف بالهزيمة، وإلقاء السلاح، والاستسلام، ليس فقط لليونان، وإنما للنموذج الحضاري الذي حملته في ركابها الجيوش الغازية للشرق في الواقع المعيش..وفي ذلك يقول: « وإذا كنا قد أخذنا في هذا العصر الحديث نسلك سبيل الأوربيين لا في حياتنا العقلية وحدها، بل في حياتنا العملية على اختلاف فروعها أيضا، فليس لنا بد من أن نسلك سبيل الأوربيين في فهم الحياة التى استعرناها. إننا أخذنا في هذا العصر الحديث نسلك السبيل الأوربية في جميع فروع الحياة ونعدل عن حياتنا القديمة عدولا يوشك أن يكون تامًا». (٢١)

-ويزيد الأمر غرابة على غرابة..أن طه حسين – في كتابه هذا- لم يقف عند تزيين « الفكر اليوناني» وحده أمام العقل المصري الشرقى، وإنما ذهب لتزيين «القوة الاستعمارية اليونانية» أيضا!.

---

(٢٠)- [قادة الفكر] ص ١٧٧- ١٧٩.
(٢١)- المصدر السابق. ص ٣٩-٤٠.

فالإسكندر الأكبر [٣٥٦-٣٢٣ق.م] قائد الغزوة الغربية التي قهرت الشرق حضاريًا ودينيًا وسياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا ولغويًا على امتداد عشرة قرون – من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن السابع للميلاد- .. هذا الإسكندر – بنظر طه حسين - : «لم يكن قائد جيش لاغير ، وإنما كان قائد فكر قبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء . والشيء الوحيد الذي لا شك فيه هو أن الإسكندر لم يكن يريد أن يفتح الأرض وحدها وإنما كان يريد أن يفتح معها العقل بل قل إنه إنما كان يفتح الأرض تمهيدا لهذا الفتح العقلى، بل لا تستعمل كلمة الفتح، فلم يكن الإسكندر فاتحا بالمعنى الذي فهمته الأجيال المختلفة، لم يكن صاحب حرب وقهر وغلب، وإنما كان صاحب مودة ومحبة وإخاء وتسوية بين الناس .. الإسكندر إذن قائد من قادة الفكر، بل هو زعيم من زعماء قادة الفكر، بل هو أشد قادة الفكر القدماء إنتاجا وأكثرهم نفعا».[٢٢]

ولأن طه حسين – كما سنذكر في إحدى مراحل هذه الدراسة- يخلط بين «الالتزام» وبين « الإلزام» فلقد ذهب وأطلق على القهر الحضاريِ الذي فرضه الغرب على الشرق في غزوة القرون العشرة التي بدأها الإسكندر، وصف «المشاركة الحضارية» للمغلوبين المقهورين مع الغالبين القاهرين !.. فقال: « ولم يكد ينتهى القرن الثامن حتى كانت الحضارة اليونانية حضارة الشرق القديم، واللغة اليونانية لغة الشرق

(٢٢)- المصدر السابق. ص ١٤٦ -١٤٨-١٥١.

القديم، وحتى أخذ الشرق يشارك اليونان في آدابهم وفنونهم وفلسفتهم، حتى نشأ من اختلاط اليونانيين والشرقيين مزاج خاص». [٢٣]

- وكما تجاهل طه حسين النقد والنقض الإسلامي للعقل اليوناني، كذلك تجاهل النقد المسيحي الشرقي للقهر الديني والحضاري الذى صنعه الإغريق والرومان بالشرق والشرقيين.. لقد غابت عن الرجل كلمات الأسقف الأرثوذكسي المصري (يوحنا النقيوسي)، والذي عاصر قهر الرومان للمسيحية الشرقية - وللثقافة الشرقية، وشهد الفتح الإسلامي لمصر، فرآه عقابا إلهيا وانتقاما ربانيا من الرومان لقاء ما اقترفوه في حق الشرق والشرقيين، فكتب يقول: «إن الله الذي يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين [العرب المسلمين] ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر وكان هرقل [٦١٠- ٦٤١م] حزينا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم.. مرض هرقل ومات. وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها، ولم يأخذ شيئا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئا ما، سلبا أو نهبا، وحافظ على الكنائس طول الأيام». [٢٤]

---

(٢٣) المصدر السابق. ص ١٥٠.

(٢٤) - يوحنا النقيوسي [تاريخ مصر - ليوحنا النقيوسي - رؤية قبطية للفتح الإسلامي] ص ٦٢. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

كما تحدث «يوحنا النقيوسي» عن البطرك الوطني «بنيامين» [٣٩هـ ٦٥٩م] الذي اغتصب الرومان كرسيه وكنائسه وأديرته، واعتبروا مذهبه هرطقة محظورة!.. حتى هرب منهم ثلاثة عشر عامًا، فلما جاء الفتح الإسلامي أمّنه وأعاده إلى كرسيه، وأعاد إليه وإلى رعيته كنائسهم وأديرتهم..وأعاد الشرعية إلى مذهبهم، وأشركهم- لأول مرة في إدارة بلادهم- فزار البطرك «بنيامين» الإسكندرية- عاصمة كنيسته الوطنية- وخطب في «دير مقاريوس» فقال: «لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون».[٢٥]

تجاهل طه حسين كل هذه الحقائق التاريخية- بل وتجاهل أن الكنائس الشرقية تؤرخ بعيد الشهداء، الذين ذبحهم وأحرقهم وأغرقهم الرومان في آتون هذه الاضطهادات.. وذهب فسمى «الاضطهادات.. والمظالم» التي اقترفها «الظلمة المارقون» - الإغريق والرومان- «مشاركة حضارية» جمعت بين اليونان وبين الشرقيين في الفلسفة واللغة والآداب والفنون!.

تلك كانت أولى معارك التغريب التي خاضها طه حسين بعد عودته من فرنسا، والتي سعى فيها إلى هزيمة العقل

(٢٥)- المصدر السابق ص ٢٢٠.

المسلم والشرقى في الصراع مع العدوان الغربي - الحضارى والاستعمارى - الذي مارسه الغرب ضد الشرق على امتداد سبعة عشر قرنا ، عشرة منها سبقت ظهور الإسلام والفتوحات الإسلامية.. واثنتان منها هي عمر الغزوة الصليبية [٤٨٩- ٦٩٠هـ ١٠٩٦- ١٢٩١م] وخمسة منها هي عمر الغزوة الغربية الحديثة للشرق، التى بدأت بعد إسقاط «غرناطة» واقتلاع الإسلام من الأندلس [٨٩٧هـ ١٤٩٢م].

ولم يخف طه حسين مقاصد هذا التأليه للفكر اليوناني، والتزييف للقوة اليونانية الغازية.. وإنما أعلن عن « انتصار وسيطرة العقل اليوناني على الحياة الإنسانية.. وهزيمة العقل الشرقي أمام المظهر اليوناني، وهو الآن يلقى السلاح ويسلم للمظهر اليوناني تسليما »!.

علمنة الإسلام:

- أما المعركة الثانية التي خاضها الدكتور طه حسين - منتصف حقبة العشرينيات - فكانت معركته في سبيل علمنة الإسلام، وذلك لفتح الأبواب الواسعة أمام تبعية المسلمين للغرب في « الحكم والإدارة والتشريع».

كان طه حسين قد كتب ١٩١٧م- في رسالته للدكتوراه التي حصل عليها من فرنسا [فلسفة ابن خلدون الاجتماعية] عن تفرد الإسلام بأنه دين ودولة وتشريع وقانون، فقال :«إن الإسلام يتناول كل الحياة البشرية روحية ومادية، ومنه يجب

أن تؤخذ القوانين، في حين أن الأديان في الأمم الأخرى لا تعنى إلا بالحياة الروحية».(٢٦)

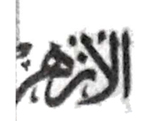
كما سبق له وكتب- ١٩١١م في مجلة [الهداية]- : عن تميز القرآن وامتيازه «بكونه كتاب عبادة وقانون، وحكمة وتشريع وحسبك بهذا ميزة للقرآن على غيره من كتب القوانين والتشريع»..

لكن الأحداث التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الأولى قد أسفرت عن عموم بلوى الاستعمار الغربي لعالم الإسلام، وعن تحطيم وعاء الخلافة الإسلامية، وزوال رمزها، وإسقاط رايتها لأول مرة في تاريخ الإسلام، وعن صعود الأصوات الداعية لعلمنة الإسلام، كي يتأكد ويتأبد إلحاق العالم الإسلامي بالنموذج الحضاري الغربي العلماني، الذى يدع ما لقيصر لقيصر، ويقف بالتدين عند ما لله من شعائر وطقوس فردية وعبادات روحية.

وبعد عام من سقوط الخلافة الإسلامية، وبينما الأمة زاهلة تتلمس سبل المواجهة لهذا الزلزال.. صدر سنة ١٩٢٥م كتاب الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥-١٣٨٦هـ ١٨٨٧-١٩٦٦م] [الإسلام وأصول الحكم: بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام]. فكان أول كتاب يكتبه مسلم يهيل

---

(٢٦)- طه حسين [فلسفة ابن خلدون الاجتماعية] ص١٥٩. ترجمة: محمد عبد الله عنان. طبعة القاهرة ١٣٤٣هـ ١٩٢٥م.



التراب على نظام الخلافة الإسلامية - حتى فى عهدها الراشد - ويخرجها من إطار « السياسة الشرعية» إلى العلمانية الغربية، ويدعى - من ثم - أن الإسلام دين للدولة، ورسالة لا حكم، وأن شريعته روحية محضة لا علاقة لها بالسياسة والإدارة والحكم والتشريع..

ولقد صور هذا الكتاب الخلافة الإسلامية - التي هي في حقيقتها نظام مدني مرجعيته الشريعة الإسلامية - صورها كهانة كنسية، فقال: «إن الخليفة [عند المسلمين] يقوم في منصبه مقام الرسول ﷺ وينزل من أمته منزلة الرسول من المؤمنين.. فولايته كولاية الله تعالى وولاية رسوله الكريم.. بل لقد رفعوه فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية»[٢٧].. وأن هذه الخلافة - حتى في عصرها الراشد- « لم ترتكز إلا على القوة الرهيبة» !.[٢٨]

.. كما ادعى - هذا الكتاب - علمنة الإسلام فقال: « إن محمدًا ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، غير مشوبة بشيء من الحكم..وإنه لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها. وما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة، ولا داعيا إلى ملك، هيهات هيهات، لم يكن ثمة حكومة، ولا دولة، ولا شيء من نزاعات السياسة، ولا

(٢٧)- الإسلام و أصول الحكم - ص٢- ٨ طبعة القاهرة ١٩٢٥م
(٢٨)- المصدر السابق ص ٢٥.

أغراض الملوك والأمراء. لم يكن هناك ترتيب حكومي ولم يكن ثمة وُلاة ولا قضاة ولا ديوان.. إلخ.. كانت زعامة دينية، ويا بعد ما بين السياسة والدين».(٢٩)

وخلص الكتاب - بناء على علمنته للإسلام - إلى أن المسلمين أحرار في أن يقيموا لهم حكومة « في أية صورة كانت الحكومة، ومن أي نوع: مطلقة أو مقيدة، فردية أو جمهورية، استبدادية أو شورية، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية».(٣٠)

أي أن كل المرجعيات والفلسفات في الحكم حلال.. بينما الحرام - فقط - هي المرجعية والفلسفة الإسلامية!.

ولقد ضاعفت دعاوى هذا الكتاب من شدة الزلزال الذي أحدثه إسقاط الخلافة الإسلامية، فدارت من حوله واحدة من أكبر المعارك الفكرية التى شهدها عالم الإسلام في القرن العشرين.

لكن السؤال:

- ماهي علاقة طه حسين بهذا الكتاب الذي حمل غلافه اسم «على عبد الرازق» - من خريجي الأزهر وقضاة المحاكم الشرعية؟

لندع الوقائع التى يتحدث بها طه حسين نفسه - تشهد على دور طه حسين في تأليف هذا الكتاب - وخاصة في قسمه الأخطر الذي يعلمن الإسلام ويجعله دينا لا دولة، ورسالة لا

---

(٢٩)- المصدر السابق ص٤٨- ٨٠.
(٣٠)- المصدر السابق ص ٣٥

حكما، والذي يجعل شريعته روحية محضة لا علاقة لها بالسياسة والحكم والإدارة والتشريع.

- يقول طه حسين عن علاقته بعلى عبد الرازق، وأسرته، وعن تاريخ هذه العلاقة:

«عرفت الأستاذ على عبد الرازق منذ أيام الطلب في الأزهر، ولم تقتصر علاقتي به وحده، فقد شملت الأسرة كلها، وكانت لنا جلسات ممتعة في بيت آل عبد الرازق، في عابدين. وأذكر أنني رثيت والدة على عبد الرازق، وكذلك والده، وكان ذلك الرثاء شعرا ونشر في [الجريدة](٣١).

إن صلتي بعلى عبد الرازق كانت وثيقة جدًا. وأذكر أن عليًا، وهو طالب في الأزهر، قد استأجر حجرة قرب الأزهر ليستريح فيها بين الدروس، نظرا لبعد منزل الأسرة عن الأزهر، وكان يصر على أن أذهب معه إلى هذه الحجرة طوال فترة بقائه فيها، وكنا نقضي الوقت في مذاكرة بعض العلوم وقراءة كتب الأدب». (٣٢)

- أما عن مشاركة طه حسين في تأليف كتاب [الإسلام وأصول الحكم] ثم في الدفاع عنه.. فيقول طه حسين: « لقد قرأت كتاب الشيخ على -[الإسلام وأصول الحكم].. قبل طبعه ثلاث مرات، وعدلت فيه كثيرا».

« ولقد كتبت مقالين في [السياسة] عن هذا الموضوع،

---

(٣١) - نشر رثاء طه حسين لوالد على عبد الرازق في [الجريدة] بتاريخ ١-١-١٩٠٨م. انظر [طه حسين الكاتب الشاعر] ص ٤٦- ٤٧.

(٣٢) - محمد الدسوقي [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] ص ٦٩، ٧٠- طبعة دار المعارف سلسلة «اقرأ» القاهرة ١٩٩٢م.

وهاجمت شيوخ الأزهر لتجريدهم الشيخ علي عبد الرازق من درجة العالمية، وإبعاده عن القضاء الشرعي، وخاصمت بعض هؤلاء، مع اعترافي بفضلهم عليّ مثل الشيخ سيد المرصفي، بسبب اشتراكه في محاكمة الشيخ علي».[٣٣]

-أما عن تحديد الجانب الذي أسهم به طه حسين في هذا الكتاب.. وكيف أنه القسم الخاص «بجعل الشريعة الإسلامية روحية محضة، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا».

١-فإن على عبد الرازق منذ بداية الضجة التى ثارت حول هذا الكتاب – وأثناء محاكمة «جماعة كبار العلماء» له بسببه -وبعد هذه المحاكمة – بل وطوال حياته- كان دائم الإعلان عن أن هذا الرأي ليس رأيه... فلقد كتب في مذكرة دفاعه أثناء محاكمته يقول: «نحن لا نعتقد أن الشريعة الإسلامية روحية محضة، ولم نقل ذلك مطلقا، ولا قلنا شيئًا يشبه ذلك الرأي أو يدانيه».[٣٤]

٢- ثم عاد بعد محاكمته ليؤكد براءته من هذا الرأي، فقال: «إن الإسلام دين تشريعي، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده، وإن الله خاطبهم جميعًا بذلك».[٣٥]

٣- واستمر الرجل على تأكيد رفضه لمقولة إن الشريعة

---

(٣٣) – المصدر السابق. ص٧٠-٧١.

(٣٤) – جريدة [السياسة] اليومية – ١٣-٨-١٩٢٥م. وانظر كذلك كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] ص٩٣- طبعة دار الشروق – القاهرة ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.

(٣٥) – [السياسة] ١-٩-١٩٢٥م

الإسلامية روحية محضة، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا.. فأعلن في - مارس ١٩٣٢م - بالمحاضرة التي ألقاها بقاعة «إيوارت» - بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عن [الدين وأثره في حضارة مصر الحديثة] يقول: «لقد جرت مصر منذ العصور الأولى على أن يكون الحكم فيها شرعيا، يرجع إلى أحكام الإسلام والأوضاع الإسلامية. وكان المصريون يفزعون أن يحتكموا إلى غير الإسلام، لأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح في القرآن».(٣٦)

٤- وفي سنة ١٩٤٦م - وهو عضو بمجلس النواب - وأثناء عرض مشروع بقانون خاص بالوقف- دافع على عبد الرازق عن التشريع الإسلامي، وحذر من تمزيق الفقه الإسلامي، الذي هو الرابطة الأقوى بين الأمم الإسلامية، فقال- موجها حديثه إلى النواب: « إنكم في هذا التشريع، توشكون أن تفتحوا في باب التشريع الإسلامي حدثا جديدا أخشى أن يكون بعيد العواقب، وأخشى أن تكون أقرب الآثار المترتبة عليه أن يمزق الفقه الإسلامي، الذي هو الرابطة الأقوى بين الأمم الإسلامية».

٥- وفي ١٩٤٧م أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه عن [الإجماع في الشريعة الإسلامية].. وهو محاضرات ألقاها على طلاب كلية الحقوق - جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن- وكل ما في هذا الكتاب مناقض ورافض لدعوى « الروحانية المحضة للشريعة الإسلامية» وفيه يؤكد على إجماع فقهاء

---

(٣٦)- الجامعة الأمريكية - كتاب [حضارة مصر الحديثة] المطبعة العصرية- القاهرة ١٩٣٣م.

المسلمين على إلزام الشريعة الإسلامية لكل المسلمين حكامًا ومحكومين.

٦- ولقد كتب على عبد الرازق في مجلة [رسالة الإسلام عدد مايو ١٩٥١ -مقالا تحت عنوان [الاجتهاد في الإسلام لحضرة صاحب السعادة على عبد الرازق باشا- في ص٢٤٦ -٢٤٧- أكد فيه على أن عبارة «إن رسالة الإسلام روحانية فقط» لم تكن رأيه يوم نشر كتاب [الإسلام وأصول الحكم وأنها «عبارة قد ألقاها الشيطان على لسانه» !.. ولم يفصح عن من هو هذا الشيطان.. وهل هو من شياطين الإنس أم من شياطين الجن؟

لكننا قرأنا في مراسلات على عبد الرازق إلى طه حسين عن محاولات الأخير دفع صديقه على عبد الرازق إلى دائرة الضوء والشهرة وإلى ميادين الزعامة وعن إباء على عبد الرازق الاستجابة «لوسوسة» طه حسين!

- قرأنا في رسالة الشيخ على إلى الدكتور طه: «لقد كدت تفتنني بحديث الزعامة.. وإنك لا تزال تذكر لي أنني زعيم وتلح في ذلك، ولا يزال يلح بك الهزل أو الجد الماكر في حديث هذه الزعامة، وكلما حاولت أن أصرفك عنه أبيت إلا الإصرار عليه، ولقد تعلم يقينا أن للزعامة دلائل، وأنني لم أوت منها بدليل..»(٣٧).

(٣٧)- [طه حسين: الوثائق السرية] ص ٢٤٩-٢٥٠ تحقيق وتقديم: د. عبد الحميد إبراهيم. دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٦م.

فطه حسين دائم المحاولة «لفتنة» على عبد الرازق، و«المكر به» ليدفعه إلى دائرة الضوء الشهرة والزعامة..

ولم ينل على عبد الرازق حظاً من ذلك إلا بسبب كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - الذي قرأه طه حسين، قبل طبعه ثلاث مرات وعدل فيه كثيرًا»!

٧- بقي أن نعرف أن ما جاء بهذا الكتاب عن الروحانية المحضة للشريعة الإسلامية، وخلوها من السياسة والحكم والقانون والتشريع والتنفيذ.. والمدح لعبارة «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ووصفها بأنها «الكلمة البالغة» وإعلان: «يا بعد ما بين السياسة والدين».. كل هذا الذي تبرأ منه على عبد الرازق هو رأي طه حسين.. الذي يقول فيه: «إن السياسة شيء والدين شيء آخر، وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول».[٣٨]

٨- ولقد جاء في كتاب زوجة طه حسين- سوزان- [معك] حديث صريح عن أن علاقة طه حسين وأسرته بعلى عبد الرازق قد كانت أدنى بكثير من العلاقة مع الشيخ مصطفى عبدالرازق [١٣٠٢-١٣٦٦هـ ١٨٨٥- ١٩٤٦م] حتى أن هذه العلاقة قد توارت تقريبًا بعد وفاة الشيخ مصطفى ١٩٤٦م - رغم بقاء الشيخ علي حيًا بعد ذلك التاريخ عشرين عامًا.. تقول زوجة طه حسين: «..وبوفاة مصطفى عبد الرازق، بعد

(٣٨) - طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] جـ١ ص ١٦، ١٧- القاهرة ١٩٣٨م.

وفاة حسن باشا وحسين بك، تنتهي مرحلة كاملة من حياتنا بشكل نهائي. لقد بقي علي عبد الرازق خلال حياته بالنسبة لنا صديقًا عزيزًا جدًا، غير أن صداقتنا معه لم تكن تنطوي على تلك الصداقة الحميمة التي تولدت من اللحظات التي يعيشها الأصدقاء معًا. لم نعد إلى أبى جورج، فالحياة قد تغيرت، مثلما تغير هذا الريف الذي أحببناه»(٣٩)

تلك هي معركة علمنة الإسلام، وعلاقة طه حسين بكتاب[الإسلام وأصول الحكم]، الذي ادعى - ولأول مرة في التاريخ - أن الإسلام دين لا دولة، ورسالة لا حكم، وأن شريعته روحانية محضة، لا علاقة لها بالحكم والسياسة والقانون والتشريع والتنفيذ.. فيا بعد ما بين السياسة والدين!.. وهو الكتاب الذي ظل علي عبد الرازق طوال بقية حياته رافضًا إعادة طبعه، معلنا براءته من الفكرة المحورية التي حملها، والتى أثارت المعركة التي شارك فيها كبار علماء الأمة وكتابها.. تلك الفكرة المقولة التي قال علي عبد الرازق: «إن الشيطان قد ألقاها على لسانه. وللشيطان أحياناً كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس»!.

* * *

العدوان على المقدسات:

وبعد عام من تفجر قضية علمنة الإسلام، وتصويره نصرانية تدع ما لقيصر لقيصر- حتى ولو كان قيصر هذا بلشفيا!-

(٣٩) - [معك]١٤٨-١٤٩.

وتقف بهذا الإسلام عند الطقوس الفردية والروحانيات التي يختص بها العبد مولاه.. تفجرت القضية الثالثة، التي مثلت ذروة عدوان طه حسين على أقدس مقدسات الإسلام.. قضية كتاب [في الشعر الجاهلي]الذي نشرة طه حسين سنة ١٩٢٦م.

ففي هذا الكتاب عبر طه حسين عن قمة الانبهار بالغرب، والتماهي مع مناهجه، والمناهج المتطرفة على وجه الخصوص، فقال: «إن عقلنا غربي وإن عقليتنا نفسها قد أخذت منذ عشرات السنين تتغير وتصبح غربية.. وهي كلما مضى عليها الزمن جدت في التغير وأسرعت في الاتصال بأهل الغرب، وإن انتشار العالم الغربي في مصر سيقضي غدا أو بعد غد بأن يصبح عقلنا غربيا»(٤٠)

-وفي هذا الكتاب أعلن طه حسين أنه سيعرض موروثنا من الشعر الجاهلي على منهج الشك، لكنه لم يميز بين مناهج الشك المتعددة التي عرفها الفكر الإنساني.

ففي مناهج الشك ماهو عبثي – عرفه السفسطائية- الذين «شكوا في كل شيء»(٤١)

ومن مناهج الشك ما وضعه الفيلسوف الفرنسي «ديكارت» [١٥٩٦-١٦٥٠] في المبدأ القائل : «لا يجوز للإنسان أن يصدق سوى الأشياء التي يقرها العقل وتؤكدها التجربة»(٤٢)

(٤٠) - طه حسين [في الشعر الجاهلي] ص ٤٥ - القاهرة ١٩٢٦م.
(٤١) - [قادة الفكر]ص ١٧٢.
(٤٢) جورج طرابيش [معجم الفلاسفة]- مادة ديكارت - طبعة بيروت ١٩٩٧م.

وهو مبدأ تختلف تطبيقاته باختلاف أنواع المعارف والعلوم .. فهو طبيعي في العلوم التجريبية وفي الأحكام، بينما يتحول إلى غلو -بل وعبث- عندما يطبق على التصورات وعلى العلوم التي لا تخضع للتجربة- مثل الآداب والفنون والديانات والوجدانيات والقيم(٤٣)

ومن هذا الشك شك منهجي، يحذر التعميم والإطلاق، فلا يكون عبثيا يعصف بكل شيء وإنما يكون سبيلا لتمحيص الفروض والنظريات وصولا للحقيقة واليقين.. وعن هذا الشك المنهجي الذي أصبح علما من العلوم الإسلامية. يقول الجاحظ [١٦٣-٢٥٥هـ ٧٨٠-٨٦٩م]: «فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه.. فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك»(٤٤)

ولقد اختار طه حسين من بين مناهج الشك هذه، أكثرها غلوا وإفراطا- بل وعبثية- وزاد على ذلك تطبيقه لهذا اللون من الشك في غير المواضع التي يطبق فيها هذا الشك وذلك عندما لم يعصف بوجود الشعر الجاهلي وحده، وإنما بالرواية

---

(٤٣)- [المعجم الفلسفي]-لمجمع اللغة العربية- طبعة القاهرة ١٩٧٩م والمراد وهبة ويوسف كرم ويوسف شلالة - القاهرة ١٩٧١م.

(٤٤)- الجاحظ [كتاب الحيوان] جـ٦ ص٣٥-٣٦ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة- الثانية.

والرواة والتاريخ والمؤرخين.. فقذف تاريخ الأمة وآدابها في الفراغ غير مدرك أن النموذج الغربي الذي تعبد في محرابه قد جعل من الأساطير اليونانية ما يشبه العلم الذي ابتعد به عن مجالات الشكوك !..

وياليت الأمر قد وقف عند هذا الشك العبثي في الشعر الجاهلي والرواية والرواة والتاريخ والمؤرخين، وإنما ذهب طه حسين إلى تطبيق هذا الشك العبثى على عقائد إسلامية وردت بها آيات محكمات في الإعجاز القرآني بل لقد تجاوز طه حسين هذا « الشك العبثي» في العقائد الإسلامية إلى «الجحود والإنكار» لبعض هذه العقائد وذلك رغم أن تراثنا الإسلامي القديم قد عرف التمييز بين «الشك» وبين «الجحود» حتى قال «النظام- إبراهيم بن سيار» [٢٣١هـ ٨٤٥م]: «

لقد نازعت من الملحدين الشاك والجاحد، فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود» (٤٥)

الأمر الذي فجر واحدة من أعنف المعارك الفكرية، التي كتبت فيها عشرات الكتب والدراسات والمقالات وناقشتها الحكومات والبرلمانات.. واندلعت لها المظاهرات.. وعرضت لها الأحزاب والزعامات والجامعات.

- لقد ذهب طه حسين على طريق هذا الشك العبثي إلى حد الجحود والإنكار لعقائد إسلامية جاءت بها آيات قرآنية

(٤٥)- المصدر السابق. ج ٦- ص ٣٥.

محكمات معجزات متحديات، وذلك من مثل الوجود التاريخي لأبى الأنبياء إبراهيم الخليل -عليه السلام- ولابنه إسماعيل-عليه السلام- والرحلة الحجازية التي قاما بها، وإقامتهما قواعد البيت الحرام.. وأولية الإسلام في الجزيرة العربية.. وعلاقة الإسلام بملة إبراهيم!! فجحد هذه العقائد معتبرا إياها مجرد حيل وأساطير!! ذهب إلى ذلك في كتابه هذا- فقال:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا. ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى.. وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لمثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح.. فليس ما يمنع قريشًا من أن تقبل هذه الأسطورة التى تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم كما قبلت روما قبل ذلك و لأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما تتصل بإيناس بن بريام صاحب طروادة»[٤٦]

كما ذهب طه حسين- على هذا الطريق - إلى إنكار عقيدة

(٤٦) - [في الشعر الجاهلي] ص٢٦-٢٧-٢٨-٢٩

ملة الإسلام بدين إبراهيم -عليه السلام- وإنكار أن الإسلام هو الدين الحق وأنه خلاصة دين إبراهيم.. وأنه المجدد لملة إبراهيم معتبرا ذلك كله حيلاً وأساطير شاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده.. فقال:

«.. أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أولية في بلاد العرب قبل أن يبعث النبي، وأن خلاصة الدين الإسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل .. وقد أخذ المسلمون يردون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم ..وتفسير هذا من الوجهة العلمية يسير أيضا، فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الإسلام، لا شيء إلا ليثبت أن للإسلام في بلاد العرب قدم وسابقة»[47]

-ولقد جاء هذا الجحود والإنكار لهذه العقائد الإسلامية، رفضا ونقضًا وجحودا لآيات قرآنية محكمات..منها:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾

(النساء-١٦٣)

(٤٧)- المصدر السابق. ص ٨٠-٨١.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(آل عمران : ٦٥-٦٨)

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(البقرة : ١٢٧-١٣٠)

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

(البقرة : ١٣٥)

﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

(آل عمران : ٩٥)

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

(النساء: ١٢٥)

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(الأنعام: ١٦١)

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(النحل: ١٢٣)

﴿ وَجَٰهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ اجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

(الحج: ٧٨)

كل هذه الآيات القرآنية المحكمات المعجزات المتحديات قد أنكرها وجحدها طه حسين بما كتبه في هذا الكتاب عن هذه العقائد الإسلامية التي شهدت عليها هذه الآيات.

- وبعد أن كان الشيخ طه حسين - في مرحلته الأولى ١٩١٤م يقر بصحة نسب الهاشميين- من ثم صحة نسب

الرسول ﷺ فيقول: «.. وربما صحت بعض الأنساب في الإسلام، ولا سيما أنساب الهاشميين»(٤٨)

.. رأيناه في كتابه [في الشعر الجاهلي] يسخر من نسب النبي ﷺ ويشكك فيه!.. فيقول: عن تعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه في قريش: فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون صفوة بني هاشم، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بني قصي، وأن تكون قصي صفوة قريش، وقصي صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب. والعرب صفوة الإنسانية كلها»(٤٩)

وطه حسين بهذا الإنكار وهذه السخرية إنما ينكر ويسخر من الحكمة والمنطق من وراء صراحة نسب الأنبياء والمرسلين، وأثر ذلك في الانتصار لرسالاتهم .. فشرف النسب للرسل، وصراحته، واصطفاء الله -سبحانه وتعالى- هؤلاء الرسل في منعة من أقوامهم ليس «سيرة» تصنعها المبالغات والأساطير -كما ذهب إلى ذلك طه حسين- وإنما هي عقيدة قرآنية:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾

[الأنعام: ١٢٤].

(٤٨) - طه حسين [تجديد ذكرى أبي العلاء] ص ١٠٤ طبعة القاهرة ١٩٦٣م.
(٤٩) في الشعر الجاهلي ص٧٢، ٧٣.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

ولا أحد ينكر دور المنعة المؤسسة على مكانة بني هاشم في حماية النبي ﷺ بمكة .. ودور القبيلة وحسبها في القتال، ولقد كانت القبائل -حتى في الإسلام- تحارب على راياتها، ولقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «قال لوط عليه السلام:

﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾

قال: قد كان يأوي إلى ركن شديد، ولكنه عنى عشيرته. فما بعث الله عز وجل بعده نبيا إلا بعثه في ذروة من قومه». قال أبو عمرو الضرير: فما بعث الله عز وجل نبيا بعده إلا في منعة من قومه» رواه الإمام أحمد.

والله سبحانه وتعالى يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس.

ولقد حضر العباس -عم النبي ﷺ- بيعة العقبة قبل أن يسلم، ليستوثق لابن أخيه من الأنصار، من منطلق العصبة المؤسسة على صراحة النسب، وقال لزعماء الخزرج: «يا معشر الخزرج، إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده» رواه الإمام أحمد.

وفي سقيفة بني ساعدة - عقب وفاة الرسول ﷺ - حسم أبو بكر الصديق الجدل مع الأنصار حول الأحق بالخلافة،

بمعيار العصبة المؤسسة على صراحة النسب، فقال: «إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش».

وشهيرة في علم الاجتماع السياسي نظرية العصبة التي تحدث عنها فيلسوف العمران ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م]

- هكذا جاء كتاب طه حسين هذا صدمة قاسية وغير مسبوقة للمسلمين في عدد من العقائد التي شهدت عليها الآيات القرآنية المحكمات المعجزات المتحديات، فلم تكن المسألة مسألة تغريب وانبهار بالنموذج الحضاري الغربي، ولا خلاف حول قبول الإسلام للعلمانية الغربية، وإنما تعدت ذلك إلى جحود العقائد وإنكار المقدسات.

وإبان المعركة حول كتاب (في الشعر الجاهلي) أدلى طه حسين بحديث إلى مجلة «الأنفور مسيون» الفرنسية -ترجمه ونشره الدكتور محمد حسين هيكل- في صحيفة (السياسة) بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٢٦ م - أنكر فيه طه حسين إساءته إلى عقائد الإسلام، فقال: «ليس في كتابي كلمة يمكن أن تئول ضد الدين، والعبارة الوحيدة التي يمكن أن أنتقد من أجلها تضع النصوص المقدسة بعيدة عن قسوة المباحث التاريخية».

لكنه عاد فاعترف بالحقيقة، وقال -في نص فرنسي ترجم ونشر بعد وفاته-: «لقد انتهيت إلى رفض قدر كبير من الشعر الجاهلي، وفي إطار ذلك المسعى شككت في بعض المعتقدات التي ذكرت في القرآن أو في الأحاديث النبوية،

وكانت الصدمة قاسية والاستنكار واسع النطاق»[50].

ولقد كان طبيعيا لهذه الأمة المؤمنة أن تنتفض للدفاع عن دينها وقرآنها ومقدساتها أمام هذا الاستفزاز الفكري غير المسبوق، فصدرت عشرات الكتب لنقض كتاب طه حسين، من أهمها:

(نقض كتاب في الشعر الجاهلي) للشيخ محمد الخضر حسين (١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ، ١٨٧٦ - ١٩٥٤ م).

(نقد كتاب في الشعر الجاهلي) للأستاذ محمد فريد وجدي (١٢٥٩ - ١٣٧٣ هـ، ١٨٧٨ - ١٩٥٤م).

(تحت راية القرآن: الرد على الشعر الجاهلي) للأستاذ مصطفى صادق الرافعي (١٢٩٨ - ١٣٥٦ هـ ١٨٨٠ - ١٩٣٧م).

(الشهاب الراصد) للأستاذ محمد لطفي جمعة (١٣٠٣ - ١٣٧٢ هـ ١٨٨٦ - ١٩٥٣ م).

(النقد التحليلي) للدكتور محمد أحمد الغمراوي

(كتاب قبض الريح) للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني (١٣٠٦ - ١٣٦٨ هـ، ١٨٨٩ - ١٩٤٩ م).

(نقض مطاعن في القرآن) للشيخ محمد أحمد عرفة (١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م).

هذا إلى مئات من الدراسات والمقالات.

---

(٥٠) طه حسين (من الشاطئ الآخر) ص٦٣ . ترجمة: عبد الرشيد الصادق المحمودي. طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

كما ناقش مجلس النواب موضوع هذا الكتاب، وقاد الأزهر -علماؤه وطلابه- حملة كبرى ضد ما جاء في هذا الكتاب، كتب فيها العلماء، وتظاهر فيها الطلاب.

وتصدت زعامة الأمة، ممثلة في سعد زغلول باشا- رئيس مجلس النواب يومئذ- لهذا الذي افتراه طه حسين على عقائد الأمة ومقدساتها، فخطب في مظاهرات طلاب الأزهر، عندما ذهبوا إلى مجلس النواب، فقال:

«إن مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر في هذه الأمة المتمسكة بدينها. هبوا أن رجلا مجنونا يهذي في الطريق فهل يضير العقول شيء من ذلك؟! إن هذا الدين متين، وليس الذي شك فيه زعيما ولا إماما حتى نخشى من شكه على العامة. فليشك من شاء. وماذا علينا إذا لم يفهم البقر؟!»[٥١]

كما كتب سعد زغلول رسالة تحية وثناء إلى الأستاذ محمد فريد وجدي بعد قراءة كتابه (نقد كتاب في الشعر الجاهلي) جاء فيها:

«حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدي، وصلني كتابك الذي وضعته في نقد كتاب (في الشعر الجاهلي)، وتفضلت بإرساله إليَّ، وقرأته في عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرك الذكر، فراقني منه قول شارح للحق، ومنطق يقارع بالحجة في أدب رائع، وتحقيق دقيق في أسلوب شائق،

(٥١) د. أحمد زكريا الشلق (تراث طه حسين) ج٣ ص٢٩ -المقدمة- طبعة دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة سنة ١٤٢٥هـ سنة ٢٠٠٥م.

وإخلاص كامل للدين في علم واسع، وانتصاف للحقيقة في احترام فائق، ومجموع من هذه الخصال استمليت منه قلبا فياضا بالإيمان، وعقلا مثقفا بالعرفان، ونفسا محلاة بالأدب، فقررت عينا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من أمثالك فينا، وأن يجازيكم على ما تصنعون بتوفيق الباحثين والمتناظرين لاحتذاء مثالكم في دقة البحث وأدب المناظرة، وإنكار الذات، والانتصار للحق، وبتوفيق الناس لاستماع أقوالكم واتباع أحسنها. والسلام على المهتدين»

١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٦ م،

سعد زغلول[٥٢]

ولم يكتف علماء الأزهر بالكتب والدراسات والمقالات التي نقضت كتاب طه حسين، كما لم يكتف طلابه بالمؤتمرات والمظاهرات، وإنما رفعوا الأمر إلى القضاء لتحقق النيابة العامة مع صاحب الكتاب الذي أجرم في حق الدين الذي هو الدين الرسمي للدولة.

وفي ١٩ أكتوبر سنة ١٩٢٦ م بدأ رئيس نيابة مصر «محمد نور الدين» التحقيق مع الدكتور طه حسين في البلاغات التي تقدم بها طلاب الأزهر وعلماؤه وشيخه الأكبر ضد ما جاء بكتاب (في الشعر الجاهلي) من:

---

(٥٢) محمد إبراهيم الجزيري (سعد زغلول: ذكريات تاريخية) ص٣٧. طبعة «كتاب اليوم» القاهرة.

- تكذيب للقرآن فيما جاء به عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وعن ابنه إسماعيل عليه السلام وعن الرحلة الحجازية، وإقامتهما قواعد البيت الحرام.

- وعن ما جاء في الكتاب بشأن القراءات السبع.

- وعن ما جاء في هذا الكتاب من إساءة إلى الرسول ﷺ والطعن في نسبه الشريف.

- وعن إنكار الكتاب أولية الإسلام في بلاد العرب، وأنه دين إبراهيم.

ولقد ختم رئيس النيابة تحقيقاته، وكتب تقريره - الذي نشر في ٣٢ صفحة- والذي ختمه في ٣٠ مارس سنة ١٩٢٧م.

ولقد نشرت «مطبعة الشباب» -بشارع عبد العزيز- خلف جامع العظام بالقاهرة (قرار النيابة في كتاب الشعر الجاهلي) والذي انتهى إلى «حفظ الأوراق إداريا».

ولقد أعاد أحد الأدباء اليساريين العلمانيين نشر هذا «القرار» في سبعينيات القرن الماضي، وهلل العلمانيون المتعصبون لطه حسين «بحفظ أوراق التحقيق إداريا» زاعمين خلو الكتاب من أية مخالفات، وأن النيابة في ذلك التاريخ كانت أرحب صدرا وأوسع أفقا مع «الإبداع» مما نحن عليه الآن! الأمر الذي استوجب تقديم نصوص من قرار النيابة تثبت وقوع عدوان طه حسين وجنايته على الإسلام، لكن حفظ أوراق التحقيق قد تم «لأن القصد الجنائي غير متوفر،

لأن المؤلف أورد ما أورد في سبيل البحث، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها».

وعلى سبيل المثال، فلقد جاء بهذا القرار:

«لقد تطرق مؤلف الكتاب في بحثه إلى الكلام على مسائل في غاية الخطورة، صدم بها الأمة الإسلامية في أعز ما لديها من الشعور، ولوث نفسه بما تناول من البحث في هذا السبيل بغير فائدة، ولم يوفق إلى الإجابة، بل خرج من البحث بغير جواب، إنه خرج من بحثه هذا عاجزا كل العجز عن أن يصل إلى غرضه، إن المؤلف لم يكن دقيقا في بحثه، وهو ذلك الرجل الذي يتشدد كل التشدد في التمسك بطرق البحث الحديثة، لقد اعتاد المؤلف الخطأ في أبحاثه، حيث يبدأ بافتراض يتخيله، ثم ينتهي بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة، كما فعل في أمر الاختلافات بين لغة حمير وبين لغة عدنان، ثم في مسألة إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة، إذ بدأ فيها بإظهار الشك ثم انتهى باليقين، وإن كل ما ذكره في هذه المسألة إنما هو خيال في خيال، على أنه سواء كان هذا الفرض من تخيله -كما يقول- أو من نقله عن ذلك المبشر، الذي يستتر تحت اسم هشام العربي، فإنه كلام لا يستند إلى دليل، ولا قيمة له. على أننا نلاحظ أن ذلك المبشر مع ما هو ظاهر من مقاله من غرض الطعن على الإسلام، كان في عبارته أظرف من مؤلف كتاب الشعر الجاهلي. كما نلاحظ أيضا أن ذلك المبشر قد يكون له عذره

في سلوك هذا السبيل، لأن وظيفته التبشير لدينه، وهذ غرضه الذي يتكلم فيه. ولكن ما عذر الأستاذ المؤلف في طرق هذا الباب، وما هي الضرورة التي ألجأته إلى أن يرى في قصة إبراهيم وإسماعيل نوعا من الحيلة؟! إن المؤلف قد أخطأ فيما كتب، وأخطأ أيضا في تفسير ما كتب، وهو في هذه النقطة قد تعرض بغير شك لنصوص القرآن ولتفسير نصوص القرآن، وليس في وسعه الهرب بادعائه البحث العلمي منفصلا عن الدين. فليفسر لنا إذن قوله تعالى في سورة النساء:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾

[النساء: ١٦٣]

وكذلك ما جاء في سورة مريم وآل عمران وغيرها من الآيات القرآنية الكثيرة التي ورد فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل، لا على سبيل الأمثال - كما يدعي حضرته - وهل عقل الأستاذ يسلم بأن الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه أن إبراهيم نبي وأن إسماعيل رسول نبي مع أن القصة ملفقة؟! وماذا يقول حضرته في موسى وعيسى وقد ذكرهما الله مع إبراهيم وإسماعيل، وقال في حقهم جميعا:

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾

[البقرة: ١٣٦]

وهل يرى حضرته أن قصة موسى وعيسى من الأساطير أيضا ؟ !

الحق أن المؤلف في هذه المسألة يتخبط تخبط الطائش ، لقد تورط في هذا الموقف الذي لا صلة بينه وبين العلم ، بغير ضرورة يقتضيها بحثه ، ولا فائدة يرجوها .

كما تكلم فيما يختص بأسرة النبي ونسبه في قريش بعبارة خالية من كل احترام ، بل بشكل تهكمي غير لائق ، وكان سيء التعبير جدا في بعض عباراته .

لقد ثبت تعديه على الدين الإسلامي ، وانتهاك حرمة هذا الدين ، ورمى الدين الإسلامي بأنه مضلل في أمور هي من عقائد القرآن والحقائق التي لا مرية فيها .

لقد تورط المؤلف في بحثه حتى تخيل حقا ما ليس بحق ، وسلك طريقا مظلمة ، وكان يجب عليه أن يسير على مهل ، وأن يحتاط في سيره حتى لا يضل ، ولكنه أقدم بغير احتياط فكانت النتيجة غير محمودة .

لقد تعدى على الدين الإسلامي الذي تؤدى شعائره علنا ، وهو الدين الرسمي للدولة ، وكان يجب عليه أن يكون حريصا في جرأته التي مست دينه ودين الدولة التي هو من رجالها المسئولين عن نوع من العمل فيها . . »[٥٣]

هكذا أدان تقرير النيابة كتاب طه حسين ، وقطع بتعديه

---

[٥٣] (قرار النيابة في كتاب الشعر الجاهلي) ص ١ ، ٢ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ . طبعة مطبعة الشباب - بشارع عبد العزيز . خلف جامع العظام . القاهرة ، بدون تاريخ .

على الدين الإسلامي.. وانتهاك حرمته.. كما سفه من منهجه في البحث، وكيف يفترض الفروض ثم يحولها إلى حقائق، وكيف يأتي بالشكوك ليحولها إلى يقين! وكيف جعل حقائق القرآن وعقائده حيلا وأساطير!..

لكن القرار قد انتهى إلى حفظ الأوراق إداريا، لا لأن الجريمة لم تقع، ولا لأن التعدي لم يحدث، وإنما لأن القصد الجنائي لم يتوفر، ففساد المنهج هو الذي جعل طه حسين يرتكب من الجرائم والتعديات ما فاق الذين نقل عنهم من المبشرين.

● وبهذا صدق القانون، وصدقت الدولة على رأي الأمة -علماء ومفكرين وجماهير- بأن طه حسين قد تعدى على الإسلام، وارتكب في حقه الجنايات التي انتهكت حرماته - على نحو غير مسبوق، وغير لائق.

● ولقد هدأت المعركة -دون أن تنتهي- بعد أن تقرر سحب الكتاب من المكتبات، وبعد أن حذف منه طه حسين السطور الأكثر حدة في العدوان على القرآن والإسلام، وبعد أن كتب بيانا أرسله إلى مدير الجامعة أحمد لطفي السيد يعلن فيه أنه لا يزال مسلما ثابت الإيمان، قال فيه:

«حضرة صاحب العزة الأستاذ الجليل مدير الجامعة المصرية،

أتشرف بأن أرفع إلى عزتكم ما يأتي:

كثر اللغط حول الكتاب الذي أصدرته منذ حين باسم «في الشعر الجاهلي» وقيل إني تعمدت فيه إهانة الدين والخروج عليه، وإني أعلم الإلحاد في الجامعة، وأنا أؤكد لعزتكم أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه، وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأنا الذي جاهد ما استطاع في تقوية التعليم الديني في وزارة المعارف حين كلفت العمل في لجنة هذا التعليم، يشهد بذلك معالي وزير المعارف وأعوانه الذين شاركوني في هذا العمل. وأؤكد لعزتكم أن دروسي في الجامعة خلت خلوا تاما من التعرض للديانات، لأني أعرف أن الجامعة لم تنشأ لمثل هذا.

وأنا أرجو أن تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان من تشاءون وتنشروه حيث تشاءون، وأن تقبلوا تحيتي الخالصة وإجلالي العظيم.

الختم (طه حسين)

في ١٢ مايو سنة ١٩٢٦م.(٥٤)

- هكذا انتهت حقبة عشرينيات القرن العشرين التي شهدت ذروة انبهار الدكتور طه حسين بالغرب الحضاري، وقمة

(٥٤) (تراث طه حسين) المجلد الثاني ص١٣ - تقديم إبراهيم عبد العزيز- دار الكتب والوثائق القومية سنة ١٤٢٨هـ سنة ٢٠٠٧م، ولقد وزع السكرتير العام للجامعة المصرية هذا البيان على الصحف، فنشرته في ١٤ مايو سنة ١٩٢٦م.

تجاوزاته الفكرية التي بلغت حد الطعن في أعز ما تملك الأمة: الإسلام والقرآن والمقدسات والرموز المعصومة للمسلمين.

● وجدير بالملاحظة أن كل كتابات الدكتور طه حسين في هذه المرحلة قد خلت -عند ذكر النبي ﷺ- من الصلاة والسلام عليه، على حين كان في مرحلته الأولى يصف القرآن بالكريم، ويداوم الصلاة والسلام على الرسول، كلما ورد ذكرهما في أي سياق.



مرحلة الإياب التدريجي .. والمخاض الحافل بالمتناقضات (١٩٣٢ - ١٩٥٢م)

في هذه الحقبة من حقب التطور الفكري للدكتور طه حسين -والتي امتدت من بدايات الثلاثينيات وحتى قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م- نلحظ المعالم البارزة الآتية:

١- خلو كتاباته من أية إساءة إلى الإسلام الدين، ومقدساته ورموزه.

٢- وتوجهه -ضمن كوكبة من كبار الكتاب- إلى الكتابة في الإسلاميات، فلقد توجه الدكتور محمد حسين هيكل باشا إلى الكتابة في «التاريخ الإسلامي»، وتوجه الأستاذ عباس محمود العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٤هـ، ١٨٨٩ - ١٩٦٤م) إلى «فلسفة» عبقريات أبطال الإسلام، أما طه حسين فلقد وقف -في أغلب إسلامياته بهذه الحقبة- على «الهامش» مركزا على «الأساطير» التي أحاطت بتاريخ صدر الإسلام، كما عادت -بالتدريج- إلى كتاباته الخاصية الإسلامية في الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، كما أسهم إسهاما ملحوظا في الدفاع عن الإسلام ضد التنصير والمنصرين، وضد البهائية والبهائيين، وفي لفت الأنظار إلى نماذج من دعوات التجديد الإسلامي.

٣- وفي السياسة الإسلامية وعلاقة الدين بالدولة توالت تأكيداته على شمول الإسلام للدين والدولة كمنهاج شامل

للحياة، وبرزت كتاباته التي تقدم العدالة الاجتماعية الإسلامية حلا ينقذ جماهير الفقراء والبؤساء.

٤- وفي الموقف السياسي من الغرب تصاعدت نبرة نقده للسياسة الاستعمارية الغربية، بالتزامن مع صعود حركات التحرر الوطني في البلاد الإسلامية، وتزايد القمع الاستعماري لهذه الحركات.

٥- وفي السياسة الداخلية المصرية، انتقل طه حسين من معسكر أحزاب الأقلية التي زاد عجزها عن النهوض بمهام الاستقلال الوطني، والتي عجزت عن الدفاع عن مواقفه الفكرية، فلقد توفي عبد الخالق ثروت باشا (١٢٩٠ - ١٣٤٧هـ، ١٨٧٣ - ١٩٢٨م) السياسي الذي أهدى إليه طه حسين كتاب (في الشعر الجاهلي)، والذي دعم موقف طه حسين -من موقع رئاسة الوزراء- إبان معركة هذا الكتاب سنة ١٩٢٧م، كما توفي عدلي يكن باشا (١٢٨٠ - ١٣٥٢هـ، ١٨٦٤ - ١٩٣٣م) خصم الوفد وسعد زغلول، الذي كان طه حسين من مناصريه بعد أن عاد إلى مصر من فرنسا، وأثناء حقبة استفزازاته الفكرية في العشرينيات، ومن ثم انتقل طه حسين من معسكر أحزاب الأقليات إلى معسكر حزب الوفد -حزب الأغلبية- وتغير موقفه من سعد زغلول الذي كان عدوا له في حقبة العشرينيات، فغدا قديس الوطنية ونموذج الوفاء والفداء.

٦- وظل التغريب الحضاري ملحوظا في العطاء الفكري لطه حسين - خلال هذه الحقبة، وخاصة في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) سنة ١٩٣٨م- الذي مثل ذروة التغريب

الحضاري في مشروعه الفكري.

إنها حقبة المخاض التي تصاعد فيها الخط البياني الذي يفصح عن تزايد وتيرة الإياب إلى أحضان الإسلام، مع بقاء العديد من المتناقضات -من مثل الفرعونية الرافضة للعروبة، والتغريب الحضاري المشكك في التجديد الإسلامي كبديل للتماهي مع النموذج الغربي.

لقد بدأت حقبة الثلاثينيات وطه حسين ما يزال على ولائه السياسي لأحزاب الأقليات، حتى لقد كتب في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣١م رسالة إلى إسماعيل صدقي باشا (١٢٩٢ - ١٣٦٩ هـ، ١٨٧٥ - ١٩٥٠ م) رئيس الوزراء الذي ألغى دستور سنة ١٩٢٣م، ووضع بدلا منه مسخا مشوها أسماه دستور سنة ١٩٣٠م، والذي زيف إرادة الأمة، وحاول حكمها بالحديد والنار- كتب طه حسين -في هذا التاريخ- رسالة إلى صدقي -الذي كان يصطاف في بلجيكا- قال فيها:

«لقد كلفتني زوجي أن أهدي إليك تحيتها خالصة ملؤها الشكر والتقدير. أما أنا فليس يكفيني أن أهدي إليك ما تعود الناس أن يتهادوه من التحيات، ولكني أحب أن تثق بأني أضمر لك من المودة والحب والإجلال ما لا أستطيع له وصفا ولا أبلغ أن أعبر في لفظ طال أو قصر. فأنا مضطر أمام هذا العجز أن أكون كعامة الناس، وأن أهدي إليك تحية ملؤها الصدق والوفاء والشوق والإخلاص»[٥٥]

---

(٥٥) (أوراق طه حسين ومراسلاته) ج١ ص٩٩، ١٠٠ - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة سنة ١٤٢٨هـ سنة ٢٠٠٧م.

- لكن مارس سنة ١٩٣٢م قد شهد الحدث -بل المعركة- التي انتقلت بطه حسين إلى موقع العداء الشديد لصدقي وحكومته، موقع المناصر لحزب الوفد وسياسته وزعيمه مصطفى النحاس باشا (١٢٩٣ - ١٣٨٥ هـ، ١٨٧٦ - ١٩٦٥م) ففي ذلك التاريخ تجدد الجدل حول كتاب طه حسين (في الأدب الجاهلي) عندما تقدم النواب: عبد الحميد سعيد (١٢٩٩ - ١٣٥٩هـ، ١٨٨٢ - ١٩٤٠م) وحافظ رمضان (١٣٧٤ هـ، ١٩٥٥م) وعبد العزيز الصوفاني- ومعهم بعض أعضاء مجلس النواب -إلى وزير المعارف محمد حلمي عيسى- باستجواب حول تدريس كتاب (في الأدب الجاهلي) بالجامعة، ولقد جاء في رد الوزير:

«إنه في سنة ١٩٢٧م تشكلت في وزارة المعارف لجنة من محمد حسنين الغمراوي بك، وأحمد العوامري بك، والشيخ محمد عبد المطلب، وعهد إليها النظر في كتاب (في الأدب الجاهلي)، فقدمت تقريرا جاء في مقدمته: إن اللجنة قرأت فصول الكتاب فوجدت فيه شيئا كثيرا يناقض الدين الإسلامي في أصوله وفروعه. ثم سردت الوجوه التي أضاعها الكتاب على قرائه من أمر دينهم، وهي:

١- أضاع عليهم الوحدة القومية والعاطفة الدينية وكل ما يتصل بهما «مقدمة الكتاب ومنهج البحث».

٢- وأضاع عليهم الإيمان بتواتر القرآن وقراءاته، وأنه وحي من الله «باب اللهجات وانتحال الشعر».

٣- وأضاع عليهم الاعتقاد في صدق القرآن وتنزهه عن الكذب.

٤- وأضاع عليهم تنزيه القرآن عن التهكم والازدراء - بما كتب في سورة الجن، وفي صحف إبراهيم، وملة إبراهيم- .

٥- وأضاع عليهم صدق القرآن والنبي فيما أخبرا به عن ملة إبراهيم وصحف إبراهيم.

٦- وأضاع عليهم براءة القرآن مما رماه به المستشرقون من أعدائه.

وقال الوزير :

وألفت لجنة أخرى من محمد حسنين الغمراوي بك، وعبد الحميد حسن، وأحمد أمين (١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ، ١٨٧٨ - ١٩٥٤م)، فجاء في تقريرها : أن الكتاب حوى نقطا تمس أصول الدين الإسلامي، وهي :

١- علاقة القراءات السبع بالوحي.

٢- رأي المستشرقين في مصادر القرآن.

٣- الصلة بين الإسلام وملة إبراهيم»[٥٦]

- هكذا وجد طه حسين نفسه أمام دورة جديدة، جددت معركة كتاب (في الشعر الجاهلي) من جديد، وفي ظروف أصعب، فلقد توفي حُماته -عبد الخالق ثروت، وعدلي يكن-

---

(٥٦) محمد سيد كيْلاني (طه حسين الشاعر الكاتب) ص١٧٠ - ١٧٢. وانظر تفاصيل أكثر حول هذا الاستجواب في : أبو بكر عبد الرازق (وثائق قضايا طه حسين) ص١٤١ - ١٦٢ - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت سنة ١٤١٢هـ سنة ١٩٩١م.

وضعفت أحزاب الأقليات –ومنها الأحرار الدستوريون- الذين كانوا يدافعون عنه، وها هي حكومة صدقي قد وجدت نفسها أمام تقارير علمية كتبها علماء كبار تدين طه حسين، وترفض تدريس كتابه (في الأدب الجاهلي) بالجامعة.

ولقد ثار الجدل الشديد في الإعلام حول فكر طه حسين من جديد، ودخل الأزهر بثقله في المعركة –بقيادة شيخه محمد الأحمدي الظواهري (١٢٩٥ - ١٣٦٣هـ، ١٨٧٨ - ١٩٤٤م).

ولقد اتخذت حكومة صدقي من الانحياز إلى الرأي العام عامل تأييد لها يجعلها مدافعة عن دين الأمة وهويتها الإسلامية، فقرر مجلس الوزراء – في ٢٠ مارس سنة ١٩٣٢م – فصل طه حسين من وظيفته في الجامعة، وفرح خصوم طه حسين بذلك فرحا شديدا، حتى لقد مدح بعضهم صدقي – شعرا- على هذا الموقف، فقال:

يكفيك أن أنقذت دين محمد
من شر طغيان اللئيم المفسد

ولو أن شرع الله يجري حكمه
لقضى بإعدام الشقي الملحد[٥٧]

وهنا، وإبان هذه الأزمة، انتقل طه حسين إلى صحافة

(٥٧)(طه حسين الشاعر الكاتب) ص١٧٣.

حزب الوفد، وكال لخصومه -وخاصة حكومة صدقي ومشيخة الأزهر- الصاع صاعين، حتى لقد اعترف بأنه قد تجاوز الحدود، وقال: «يبدو أنني أهنت الشيخ الأكبر وكل المشايخ، ورئيس الوزراء وكل الوزراء، بل ربما أهنت في النهاية كل الناس، وكان ذلك عملا أحمق وشريرا»[٥٨].

ولقد «أنذرت الحكومة البعثات الأجنبية في مصر بالكف عن أن تقدم لطه حسين عروضا للعمل، ولكن الجامعة الأمريكية تحدت هذا الإنذار، وطلبت من طه تقديم مجموعة من المحاضرات، الأمر الذي قدم له دعما لا يقدر بثمن» - على حد قول زوجته- التي أضافت - تعبيرا عن شدة الأزمة، واستحكام المحنة-: «لقد اعترف لي طه أنه فكر بالانتحار، لكنه لم يفكر فيه وقتا طويلا»[٥٩].

ولقد كانت هذه المحنة الرحم الذي شهد المخاض الذي بدأت تتولد منه التحولات التدريجية، والبطيئة، لطه حسين نحو الولاء والانتماء الأكثر والأوضح للإسلام، لقد أدرك أن السير في طريق تحديه للرأي العام -على حد تعبيره- «عمل أحمق وشرير»، ورأى عجز أحزاب الأقليات عن الدفاع عنه -كما كان الحال في العشرينيات- فكانت الأزمة التي دفعته إلى تغيير المسار بدلا من الانتحار!.

- فبعد أن كان -في العشرينيات- عدوا لسعد زغلول، حتى لقد قال -عندما سمع خبر وفاته - في أغسطس سنة

---

(٥٨) (معك) ص١٠٣

(٥٩) المصدر السابق، ص١٠٣.

١٩٢٧م وكان يتناول العشاء بأحد مطاعم بيروت: «لم يكن لي من هو أكثر عداوة منه»[٦٠]!..

أصبح متبتلا في محراب الوطنية لسعد زغلول، فكتب يقول:

«لقد أنشأ سعد زغلول رحمه الله مدرسة القضاء يريد بها إصلاح القضاء فأصلحه وأصلح معه فنونا من التعليم وفنونا من التفكير وأبوابا من الحياة العقلية لا في مصر وحدها بل في الشرق العربي كله، ويكفي أن الذين خرجوا من مدرسة القضاء هذه يعلمون الآن في الجامعة، ويشغلون مناصب ذات خطر في الدولة، ولا تستطيع الحياة المصرية أن تخلص منهم أو أن تنفيهم عنها، أو أن تخلص من الطابع الذي طبعوها به دون أن يصيبها شيء من الاضطراب والفساد غير قليل.

وكان سعد رحمه الله أزهريا كالأستاذ الإمام -الشيخ محمد عبده-، وكان سعد رحمه الله قاضيا أهليا. فكان سعد إذن صلة حسنة بين هذين النوعين من القضاء المصري»[٦١].

كما يكتب في ذكرى وفاة سعد سنة ١٩٣٤م فيقول:

- إن كل ما ألم بمصر من مكروه منذ مات سعد، قد ألم بها في حياة سعد، وقد عرف سعد كيف يلقى المكروه، ويصبر عليه، ويخلص منه، وعلم أبناءه المصريين كيف يتأثرونه ويسيرون سيرته، ويتخذونه لهم إماما.

---

(٦٠) المصدر السابق ص٨١.

(٦١) صحيفة (كوكب الشرق)، ٥ - ١ - ١٩٣٤م (تراث طه حسين). ج٤ ص٥١.

وكل ما تبلوه مصر من خير وشر، وكل ما تذوقه مصر من حلو ومر، في هذه الأيام بعد أن مات سعد، قد بلته مصر وذاقته مصر في تلك الأيام حين كان سعد حيا، وقد رأت مصر سعدا وهو يبلو ما تبلو، ويذوق ما تذوق، ويرسم لها طريق الظفر، وينهج لها نهج الفوز، ويتقدمها إلى التضحية إن كانت الحاجة إلى التضحية، ويتبعها إلى اجتناء الثمرات إن أتيح لها اجتناء الثمرات.

لقد عرف سعد كيف يملك قلوب المصريين، وكيف يملؤها بشخصه العظيم. فما قدرت عليه مصر في حياة سعد ستقدر عليه دائما بعد موت سعد؛ لأن هذه القدوة الصالحة التي أقامها هذا الرجل العظيم لا يمكن أن تضعف، ولا أن يبلغها الفناء، لقد أصبح حب سعد في مصر وفي الشرق شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وظلها مبسوط على النفوس كلها، وعلى القلوب كلها، وعلى الأجيال القائمة وعلى الأجيال الناشئة، فليس إلى استئصال هذه الشجرة ولا إلى تضييق ظلها من سبيل»[٦٢].

هكذا تحول طه حسين مائة وثمانين درجة، فكتب هذا الذي كتبه عن سعد زغلول -الذي كان- في العشرينيات أكثر الناس عداوة له!!.

وبعد أن كان طه حسين - في العشرينيات - الكاتب الأول لحزب الأحرار الدستوريين، أصبح منذ مارس سنة ١٩٣٢م

---

(٦٢) صحيفة (الوادي) في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٤م (تراث طه حسين) ج٤ ص٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣.

- تاريخ فصله من الجامعة !- الكاتب الأول لحزب الوفد وزعيمه مصطفى النحاس باشا- خصوصا بعد أن غادر العقاد حزب الوفد وصحافته إلى حيث أحزاب الأقليات !.

وفي هذه الحقبة بدأ نقده لفرنسا يحل محل عشقه القديم لها..

ففي سنة ١٩١٧م -ومع بداية توجهه غربا- رأى في الغزوة الفرنسية لمصر سنة ١٧٩٨م -بقيادة بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) - وهي التي قتلت (١/٧) سُبع الشعب المصري ! -أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ من شعب كان تعداده أقل من ثلاثة ملايين- وعهدت إلى المعلم يعقوب حنا (١١٥٨-١٢١٦هـ، ١٧٤٥- ١٨٠١م)- الذي يسميه الجبرتي (١١٦٧- ١٢٣٧هـ، ١٧٥٤- ١٨٢٢م) «يعقوب اللعين»! - عهدت فرنسا إليه «بأن يفعل بالمسلمين ما يشاء، حتى صرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين» ![63]..

رأى طه حسين -في رسالته عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) -التي نالها من باريس سنة ١٩١٧م- «أن مصر لم تستيقظ إلا بتأثير الحملة البونابارتية المباركة، فنهضت واحتكت بالأوربيين الذين غدوا أساتذتها. وإني أعتقد بمنتهى اليقين أن تأثير أوروبا، وفي مقدمتها فرنسا، سيعيد

(٦٣) الجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) ج٥ ص١٣٦. تحقيق: حسن محمد جوهر، وعمر الدسوقي، والسيد إبراهيم سالم -طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م، وانظر كتابنا (الحملة الفرنسية في الميزان) ص١٣-٢١ - طبعة نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٨م.

إلى الذهن المصري كل قوته وخصبه الماضيين»[٦٤]

بعد هذا العشق والانبهار، بدأت في -الثلاثينيات- مرحلة النقد لما أصاب الشعوب من مظالم صنعها الفرنسيون والأوروبيون فكتب طه حسين -في ذكرى الثورة الفرنسية سنة ١٩٣٤م- يقول:

«ليس صحيحا أن الثورة الفرنسية قد حررت الإنسان، فما زال الإنسان يستعبد الإنسان، وما زال الفرنسيون الذين كانوا يرون أنفسهم رسل الحرية يستعبدون أجيالا من الناس في أقطار الأرض على تباعدها، ويستعبدونهم باسم الثورة، ويستعبدونهم باسم الحرية والإخاء والمساواة.

ليس صحيحا أن الثورة الفرنسية قد محت الرق، فالأفراد لا يباعون ولا يشترون في البلاد المتحضرة، ولكن الأمم الكبيرة والشعوب الضخمة ذات الحضارة القديمة والمجد المؤثل تحيا حياة الرقيق، وتسام ألوان الذل والخسف بأيدي هؤلاء الأوروبيين الذين يرون أنفسهم رسل الحرية والإخاء والمساواة.

ليس صحيحا أن الثورة الفرنسية قد أخرجت الناس من الظلمة إلى النور، فما زالت ظلمات البأس والبطش والقسوة والعنف والجور حالكة مدلهمة على أمم من حقها أن تستمتع بالنور كما تستمتع به أوروبا وكما يستمتع به الفرنسيون، إن الثورة الفرنسية لم تصل بالناس إلى الحرية، ولكنها فتحت

---

(٦٤) طه حسين (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) ص١٦٥. ترجمة محمد عبد الله عنان. طبعة القاهرة سنة ١٣٣٤هـ، سنة ١٩٢٥م.

للناس أبواب الحرية، فمن الناس من يلج هذه الأبواب، ومنهم من يقف أمامها حائرا ذاهلا مبهوتا[٦٥].

- ولقد شهدت مطالع الثلاثينيات ظاهرة تحول فيها كثير من الكتاب الكبار إلى الكتابة في الإسلاميات، وذلك بعد أن نضجوا فكريا، فقل انبهارهم بالنموذج الحضاري الغربي - ذي الطابع العلماني والمادي-، وبعد أن أدركوا تميز الإسلام عن النصرانية الغربية وخلو تاريخنا الحضاري من الكهانة والكهنوت والدولة الثيوقراطية التي جاءت العلمانية الغربية رد فعل عليها، وبعد أن بدأت في الظهور عورات النموذج الحضاري الغربي -في الامبريالية، والحروب الكونية، وإفراز الفاشية والنازية والشيوعية- ولقد لعب «زلزال التنصير» الغربي الذي اجتاح مصر - تحت حماية الاستعمار والامتيازات الأجنبية، والذي هز الضمير الديني في مصر دورا بارزا في تحولات هؤلاء الكتاب الذين عادوا إلى الأصالة الإسلامية يبحثون فيها عن المناهج التي تساعد في فقه واقعنا، وفي الإجابة على علامات استفهام هذا الواقع.

وأخذ هؤلاء الكتاب المتحولون من العلمانية إلى الإسلامية -يميزون في الفكر الغربي- بعد زوال غشاوة الانبهار عن عقولهم - بين العلوم الطبيعية وعلوم التمدن المدني - التي هي مشترك إنساني عام لعمران الواقع المادي، وبين العقائد والفلسفات والاجتماعيات والإنسانيات، التي هي

---

(٦٥) صحيفة (الوادي) في ١٤ - ٧ - ١٩٣٤م (تراث طه حسين) ج٤ ص٤٧٩، ٤٨٠.

خصوصيات حضارية، لعمران النفس الإنسانية، رافضين النظر في هذه الحزمة من المعارف والعلوم بمعايير العلوم الطبيعية والمادية -كما هو الحال في الفلسفة الوضعية المادية الغربية- ورافضين -كذلك- صب وقائع تاريخنا في قوالب تاريخ الحضارة الغربية.

ولقد زكى هذه التحولات، ووسع من نطاقها شراسة التحديات الفكرية التي زاد الاستعمار من أثقالها على العقل المسلم والهوية الحضارية الإسلامية.

لكل هذه الأسباب -وما ماثلها- حدثت موجة من التحولات الفكرية نحو التوجهات الإسلامية، على حساب التوجهات التغريبية والعلمانية، فكتب:

- الدكتور محمد حسين هيكل (حياة محمد) و(في منزل الوحي)، وأعلن -في شجاعة كبرى- عن هذه التحولات وأسبابها.
- وكتب الأستاذ العقاد العبقريات.
- وكتب توفيق الحكيم (١٣١٥ - ١٤٠٧هـ، ١٨٩٨ - ١٩٨٧م) (أهل الكهف) و(محمد).
- وكتب أحمد أمين (ضحى الإسلام).
- وكتب فريد رفاعي (عصر المأمون).
- وكتب زكي مبارك (١٣١٠ - ١٣٧١هـ ١٨٩٢ - ١٩٥٢م) (النثر الفني في القرن الرابع الهجري).

● وكتب معروف الأرنئوطي (سيد قريش).

● ونظم الشاعر أحمد محرم (١٢٤٢ - ١٣٦٤هـ، ١٨٧٧ - ١٩٤٥م) قصائده في (مجد الإسلام).

● وكتب طه حسين (على هامش السيرة).

ولقد تحدث طه حسين عن هذه التحولات وملابساتها، وعن تمايز مواقف ونوعيات الأسلمة لأبرز رموزها، وكيف اختار هيكل الكتابة في «تاريخ» صدر الإسلام، واختار العقاد «فلسفة» عبقريات صدر الإسلام، بينما وقف هو -طه حسين- عند «أساطير» صدر الإسلام!.

تحدث عن هذا الحدث المحوري في تاريخ الفكر المصري الحديث، وعن رأيه فيه، وموقعه منه، فقال:

«لقد نشأت فيما بين سنتي ١٩٣٣ و ١٩٤٦م حركة أدبية كاملة ذات طابع ديني، فثمة كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين أشعلتا موقدين مختلفين: أولهما كتاب «جول لومتر» (على هامش الكتب القديمة). وثانيهما كتاب (حياة محمد) بقلم «إميل درمانجم».

وقد تناول حسين هيكل هذا الكتاب الأخير بالعرض في ملحق (السياسة) ١٠ يونيو سنة ١٩٣١م، و١٦ فبراير، ١٩ مارس، ١٨، ١٩ إبريل، ٢٣ مايو سنة ١٩٣٢م.

ولقد أصدر هيكل (حياة محمد) مكتوبة من منطلق حديث إلى حد ما. وكان مؤدى ذلك هو خروج السلفية التقليدية ظافرة على الدوام، فقد نسي هيكل أن بعض الوقائع لا تخضع

ولا يمكن أن تخضع لضوابط العلم، ومثال ذلك البرهنة على أن إسماعيل وليس إسحاق هو الذي واجه محنة الفداء، والتدليل بطريقة علمية على إمكان الرحلة التي قام بها النبي ﷺ حينما أسري به من مكة إلى بيت المقدس، وعاد في غضون ليلة واحدة، وهلم جرا... إلى آخر هذه الأمور التي تتصل بالإيمان ولا تتعلق بالعقل. وقد طبق حسين هيكل في كتابه منهج جمال الدين ومحمد عبده، فقد أرادا بأي ثمن أن يوفقا بين العقيدة الإسلامية والحضارة المعاصرة.

ولقد لقي هذا الكتاب نجاحا منقطع النظير في العالم العربي كله بين أصحاب الثقافة الرفيعة وعامة الجمهور على حد سواء. وهو ما يثبت أن الشعوب الإسلامية تطمح بحق إلى الحضارة الحديثة ولكنها لا ترغب مع ذلك في التخلي عن التراث.

ووجد هيكل في هذا النجاح ما شجعه على الاستمرار، فنشر على التوالي حياة الخليفة الأول أبي بكر في مجلد واحد، وحياة الخليفة الثاني عمر في مجلدين، وهو الآن بصدد كتابة حياة الخليفة الثالث عثمان.

وقد حذا حذوه حوالي سنة ١٩٤٠م عباس العقاد، فاضطلع بسلسلة من الدراسات عنوانها العبقريات، غير أن العقاد لا يتابع هيكل في منهجه، فهو لا يرمي إلى التأريخ ولا إلى كتابة الأدب الخالص، وإنما يعرض تأملاته التي تكاد تكون فلسفية على طريقة «كارلايل» (١٧٩٥ - ١٨٨١م). ولا يقل نجاحه عن نجاح زميله هيكل.

وقد حاولت أن أروي بعض الأساطير التي تتصل بالعلامات المبشرة بمقدم النبي ﷺ وبمولده وطفولته، ونشرت هذه المجموعة من القصص بعنوان استلهمته من «جول لوميتر»، وهو على هامش السيرة، وكان ذلك عملا من أعمال الخيال؛ فقد أخذت من بعض الأساطير لبابها وسمحت لنفسي بقدر كبير من الحرية بوضع وابتكار الإطار الذي يخاطب العقل المعاصر عن قرب، مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بطابع القدم، فلما لقي هذا المجلد الأول استقبالا حسنا أتبعته بمجلد ثان ثم بمجلد ثالث. ولم أرد على الإطلاق رواية الأحداث التاريخية، أو إثبات قضايا دينية أيا كانت، وإنما سعيت بصفة خاصة إلى الإشادة بجوانب البطولة في تلك الفترة الرائعة، وأن أتوجه بذلك إلى أفئدة المسلمين في تعطشهم إلى المثل العليا، وتمسكهم في الوقت نفسه بماضيهم المجيد.

وبعد تلك المحاولة، جاء دور توفيق الحكيم، وهو لم ينتج عملا من أعمال الخيال، لأنه لم يخترع شيئا، ولا كتابا من كتب التاريخ، لأنه لم يدرس شيئا، ولكنه صاغ ما في حياة النبي من أحداث بلغة الحوار وفقا لطريقةٍ في التعبير محببة إلى نفسه.

إن العالم العربي المعاصر قد انتهى إلى موقف شديد التناقض منذ نهاية القرن الماضي، فقد دفعته ظروف الحياة الحديثة إلى الأخذ بالحضارة الغربية، ولكنه بقي مستمسكا بالتراث متعلقا بالمثل العليا الدينية»(٦٦).

---

(٦٦) (من الشاطئ الآخر) ص ٦٨، ٦٩، ٧٠.

هكذا تحدث طه حسين عن هذه الموجة من التحولات الفكرية إلى الإسلاميات، وعن مذاهب كبار رموزها، وعن مذهبه فيها، وبعد أن كان -في العشرينيات- يطمح ويطمع في أن نكون غربيين في كل شيء، اكتشف أن الأمة «متمسكة بالتراث، ومتعلقة بالمثل العليا الدينية» مع «الأخذ بالحضارة الحديثة».

ولقد أفصح طه حسين -في ثلاثيته (على هامش السيرة)- عن حقيقة ما أصابه من تطور فكري، باعد بينه وبين الغرور العقلاني، فأصبح يتحدث عن المعجزات الخارقة للعادة باعتبارها علما له معاييره المعقولة -رغم أن العقل القاصر لا يحيط بها- أفصح عن هذه الحقيقة الهامة في تطوره الفكري، فقال -في مقدمة الجزء الأول سنة ١٩٣٣م:

«هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين، لأني لم أرد بها العلم، ولم أقصد بها إلى التاريخ... وإنما الأدب الخصب حقا هو الذي يلذك حين تقرؤه، لأنه يقدم إليك ما يرضي عقلك وشعورك، ولأنه يوحي إليك ما ليس فيه، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص، وأنا لم أفكر في هذا الكتاب تفكيرا، ولا قدرته تقديرا، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون، وإنما دفعت إليه دفعا، وأكرهت عليه إكراها، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسي، ويفيض بها قلبي، وينطلق بها لساني، وإذا أنا أملي هذه الفصول وفصولا أخرى أرجو أن تنشر بعد حين .... وأنا أعلم أن قوما سيضيقون بهذا الكتاب، لأنهم محدثون يكبرون العقل،

ولا يثقون إلا به، وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها.

وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل، ولم يرضها المنطق، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها، ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه عن النفس حين تشق عليهم الحياة، وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش.(٦٧)

– وبعد هذا التمهيد –في الجزء الأول– إزاء الموقف من العقل، رأيناه –في الجزء الثاني– يصعد درجات، فيقول: «فإني يا بني أرى أن في العقل تمردا وغرورا. قد خضعت له طائفة من الأشياء، وذلت له بعض صور الطبيعة، فظن أن كل شيء يجب أن يخضع له، وأن كل صورة من صور الطبيعة

(٦٧) (على هامش السيرة) ج١ ص ٥، ٦، ٩، ١٠، ١١. طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة سنة ٢٠١٤م (والأجزاء الثلاثة في مجلد واحد)

يجب أن تذعن لسلطانه . والحوادث مع ذلك تثبت له من يوم إلى يوم، بل من لحظة إلى لحظة أنه لم يعلم من الأمر إلا أقله، ولم يستذل من صور الطبيعة إلا أيسرها وأهونها شأنا .

وإن غرور العقل يا بني قد زين له أن يجعل للطبيعة قوانين، ويفرض عليها قيودا وأغلالا، وألا يؤمن إلا بها ولا يرضى عنها إلا إن خضعت لقوانينه، ورسفت في قيوده وأغلاله. ولكن قوانينه لم تحط بكل شيء، ولكن قيوده وأغلاله لم تبلغ كل شيء. وما زالت الطبيعة حرة طليقة، وما زالت أكبر من العقل، وأوسع من سلطانه وأبعد من مرماه. وما زالت أحداث تحدث لا يستطيع العقل إنكارها، ولا يستطيع تفسيرها، ولا يستطيع إخضاعها لقوانينه ولا لقيوده وأغلاله... ما أجدر هذا العقل، يا بني، أن يصلح نفسه، وأن يصلح ما حوله، لو أنه عرف قدر نفسه، فلم يخرج عن طوره ولم يسرف في التمرد والغرور........

إن هذه المعجزات التي تخرق العادة وتخالف مألوف العقل من قوانين الطبيعة، ليست في نفسها إلا مظاهر طبيعية كغيرها من المظاهر، إلا أن سلطان العقل لم ينبسط عليها، إن سلطان العقل لم ينبسط ولا يمكن أن ينبسط على كل شيء، والله يجري هذه المعجزات على أيدي رسله وأنبيائه ليظهر العقل على أنه ما زال ضعيفا قاصرا، وعلى أن علمه ما زال بعيدا، وسيظل بعيدا عن أن يحيط بكل شيء...

وما أرى يا بني أن أمر هذا العقل سيصلح إلا حين يجري الله المعجزة الكبرى (القرآن) ، هذه التي يفهمها العقل حق

الفهم، ويكبرها كل الإكبار، يفهمها فلا يستطيع لها إنكارا، ويكبرها فلا يستطيع عليها تمردا ولا طغيانا..»(٦٨)

هكذا قدم طه حسين -في (على هامش السيرة)- مقالا في العقل، مثل تطورا كبيرا وحاسما إزاء موقفه القديم.. وفيه دعا إلى إصلاح العقل بالمعجزة القرآنية -التي يفهمها العقل، فلا يستطيع لها إنكارا، ويكبرها فلا يستطيع عليها تمردا ولا طغيانا.. -وذلك بعد أن اقترف -هو- في العشرينيات- جريمة التمرد على هذا القرآن الكريم!

وفي الجزء الثالث -والأخير- من (على هامش السيرة) سنة ١٩٣٨م - بدأ طه حسين يصلي ويسلم على رسول الله ﷺ.. صنع ذلك ست مرات.. وهو ما لم يحدث منه طوال مرحلة تمرده وانبهاره بالغرب!.

- وغير هذا العمل الكبير (على هامش السيرة) -أسهم طه حسين- في الإسلاميات بنصيب ملحوظ..

- فلقد كتب عن القرآن الكريم يقول:

«إن القرآن ليس شعرا؛ لأنه لم يتقيد بقيوده، وليس نثرا، لأنه مقيد بقيود خاصة لا توجد في غيره، قيود يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة، فهو إذن

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾

(فصلت: ١)

(٦٨) (على هامش السيرة) ج٢ ص٢٩٣، ٢٩٤.

وهو الوحيد فى بابه، لم يكن قبله ولم يكن بعده مثله، ولم يحاول أحد أن يأتى بمثله. وتحدى الناس أن يحاكوه، وأنذرهم أن لن يجدوا إلى ذلك سبيلا ،فأراح الخطباء أنفسهم من هذه المحاولة المستحيلة التى عدوها خروجًا على الدين ولما كان القرآن مستحيل المحاكاة فمن الحق علينا أن نضعه فى مقامه الخاص الذى لا يصح أن يقاس به شىء آخر(٦٩)

وفى الوقت الذى كان فيه غول الربا يفترس جماهير المصريين، ويصيب الصناعات والتجارات المصرية بالكساد والخراب ،ويسارع «الخواجات» وأغلبهم يهود لنزع ملكيات المصريين، فى ظل الأزمة الرأسمالية العالمية، وفى حماية الاستعمار والامتيازات الأجنبية ... كتب طه حسين عن موقف الإسلام من الربا ،فقال :

«فى القرآن والحديث نصوص صريحة لا تقبل شكا ولا تحتمل تأويلًا، تحرم على الناس الربا، ويقال إن البرلمان المصرى [وشيخ الأزهر - الظواهرى - عضو فيه] أقر قانونين نفذ أحدهما منذ عام وسينفذ الآخر بعد أيام، وكلاهما يجعل الربا قاعدة من قواعد التعامل فى بنك التسليف الزراعى، وفى بنك التسليف العقارى.. وأموال الأزهر والأوقاف مودعة فى البنوك، وتدر الإيرادات ! أليس نهى الدولة والأفراد والأزهر والأوقاف عن الربا آثر عند الله عز وجل، وأحب إليه من مصادرة كتاب الخطيب البغدادى - [تاريخ بغداد] لأن فيه نقدًا

(٦٩) طه حسين[المقتطف]عدد فبراير سنة ١٩٣١م [تراث طه حسين]جـ٢ ص٥١٠.

لأبى حنيفة؟! وأليس من اللعب الانصراف عن البغاء والربا وعن التبشير وتعطيل الحدود إلى مصادرة كتاب الخطيب البغدادى»؟!(٧٠)

وفى سنة ١٩٣٣م خاض طه حسين-بفروسية مبهرة-معركة كبرى ضد التنصير والمنصرين، الذين شنوا هجومًا شرسًا على الإسلام من خلال المدارس الأجنبية والملاجئ، وتحت حماية الاستعمار والامتيازات الأجنبية.. فكتب ست مقالات ضد زلزال التنصير هذا - تحت عناوين: «عدوان» و«هزل» و«حزم» و«فتنة» و«وتوفيق» و«تجن» - وذلك فى صحيفة (كوكب الشرق) - الوفدية - بتواريخ ١٠، ١٢، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٥ يونيه سنة ١٩٣٣م ومما جاء فى هذه المقالات: «ما بال الأجانب عندنا لا يرعون حرمة الضيافة والجوار؟ وما بالهم لا يرعون الحق الذى يفرضه القانون؟ وما بالهم لا يرعون الواجب الذى يفرضه الجوار؟ وما بالهم يلحون فى إكراه المسلمين على أن يخرجوا من دينهم ويستبدلوا منه دينًا آخر؟ ما بالهم يحتالون فى ذلك ويكيدون له، فإن أعيتهم الحيلة، وأعجزهم الكيد، التمسوا إليه سبل الشدة والحدة، فعذبوا الناس تعذيبًا ونكلوا بهم تنكيلًا، حتى يرفضوا دين آبائهم ويدخلوا فى دين لا يحبونه ولا يريدون الدخول فيه؟.

هؤلاء المسلمون تتصل شكواهم من عبث المبشرين بدين الفتيان والفتيات، ومن فتنة المبشرين للشباب فى دينهم

---

(٧٠) طه حسين [السياسة] فى ٢٦/٧/١٩٣٢م (تراث طه حسين) جـ٣ ص١١٣، ١١٤.

باللين حينًا وبالشدة حينًا، وبالحيلة مرة وبالقهر مرة أخرى. هؤلاء المسلمون يشكون من ذلك،لا فى مدينة واحدة بل فى مدن عدة، ولا فى وقت واحد بل فى أوقات مختلفة. وهؤلاء الأجانب يسمعون الشكوى فلا يحفلون بها ولا يلتفتون إليها. ولا يكفون سفاءهم عن هذا الإثم والعدوان، وهم يعلمون حق العلم أن لو ذهب المبشرون المسلمون إلى بلادهم يدعون فيها إلى الإسلام لردوا عن ذلك ردًا عنيفًا، وهم يعلمون حق العلم أن لو أخذ المبشرون المسلمون يدعون الأجانب فى مصر نفسها إلى الإسلام لردوا عن ذلك ردًا شديدًا.

أفيريد الأجانب أن نفهم أنهم يأبون أن يعوفوا لنا حقًا، أو يرعوا لنا حرمة، أو يؤمنوا لنا بكرامة؟ أفيريد الأجانب أن يستقر هذا الرأى فى نفوسنا؟ وهل يقدر الأجانب نتيجة هذا الرأى إن استقر فى نفوسنا بالقياس إليهم؟ وهل يأمن الأجانب نتيجة هذا الرأى على مصالحهم ومرافقهم عندنا؟ وهل يؤثر الأجانب عداوتنا على مودتنا، وبغضنا على حبنا؟ وهل يريد الأجانب أن يسوء ظننا بهم، وأن نتهمهم فى كل ما يقولون وفى كل ما يعملون، وألا ننظر إليهم ولا نسمع لهم،إلا كما ننظر إلى العدو المخوف وكما نسمع للخصم المريب؟.

إن كانوا يريدون ذلك ويحرصون عليه، فما أيسر أن يبلغون بالمضى فيما هم فيه من تشجيع السفهاء وحماية هؤلاء الذين يعتدون على المسلمين فى آثر الأشياء عندهم، وأعز الأشياء عليهم وهو الدين..

فهذا عدوان المبشرين مازال متصلاً، وهذه أنباء هذا العدوان تأتينا من أنحاء القطر، والصحف تذيعها وتلح في إذاعتها، وتستنهض الحكومة وتلح في استنهاضها، وتنبه الشيخ الأكبر وتلح في تنبيهه، فإذا الحكومة معرضة، وإذا البرلمان لاه، وإذا الشيخ الأكبر في نوم عميق، والمبشرون يعتدون ويغلون في العدوان !!!.

وهذه أنباء بورسعيد تحدثنا منذ أمس بأنهم قد أسرفوا في هذا العدوان حتى أكرهوا صبية لم تتجاوز الخامسة عشرة على الكفر، فلما أبت عليهم أعملوا في جسمها السياط، وسلطوا عليها العذاب، ولولا أن انتهى أمرها إلى المسلمين من أهل المدينة فاستعانوا بالشرطة لاستنقاذ هذه الصبية لاضطرت هذه البائسة إلى الكفر أو إلى الموت !!.

إننا في بلد إسلامي يجب أن يعز فيه الإسلام، ولايذل...

يجب أن تغلق كل مدرسة يعمد أصاحبها إلى غير التعليم، ويجب أن ينفى عن أرض مصر كل مبشر يحاول أن يفتن الناس في دينهم...

ألا إن محنة المسلمين بالمبشرين عظيمة منكرة، ولكن محنتهم برجال الدين الذين يتخذون دين الله تجارة أعظم وأشد نكرًا...

يجب على الحكومة أن تبين للناس أنها حكومة إسلامية حقًا، قد نهضت لحماية الإسلام ورعاية أمور المسلمين

ركف المبشرين عن أن يعتدوا على الدين، يجب عليها أن تأخذ شجاعتها بكلتا يديها - كما يقول الفرنسيون - وأن تغلق مدرسة واحدة من هذه المدارس الأجنبية التى تسئ إلى المسلمين فى أبنائهم أبناتهم، وتعتدى على عقولهم بالتنويم المغناطيسى وعلى أجسامهم بالسياط يجب عليها أن تأخذ شجاعتها بكلتا يديها فتنفى من الأرض مبشرا واحدًا من هؤلاء المبشرين الذين يستغلون ضعفها وعجزها فيمعنون فى الاعتداء على كرامة المصريين ودينهم الرسمى .

ولكنى أزعم أن الحكومة لن تفعل شيئًا من هذا ،بل لن تفكر فى أن تفعل شيئًا من هذا، لأنها تخاف الأجانب أكثر مما تخاف المصريين، ولأنها تشفق من الأجانب أكثر مما تشفق من المصريين، ولأنها تؤثر رضاء الأجانب على أن تحمى دينها الرسمى الذى تزعم أنها إنما قامت لتحميه وتعلى كلمته...

لقد وفق المسلمون من أهل بورسعيد حين لم يحفلوا بالوزارة ولم يلجأوا إليها بعد أن استعداها الناس واستغاثوها فلم يجدوا عندها غناء ولا بلاء، وفق المسلمون فى بورسعيد حين أعرضوا عن الوزارة هذه المرة وفزعوا إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك يستعدونه ويلوذون به ويطلبون إليه أن يأمر حكومته لترد عنهم هذا البلاء وتصرف عنهم هذه المحنة.. هنالك وجد المسلمون فى بورسعيد من جلالة الملك سميعًا لهم، عطوفًا عليهم، رفيقًا بهم، حريصًا على أن يدفع عنهم هذا المكروه.. جلالة الملك إذن هو الذى تفضل

فأمر الوزارة أن تصطنع الحزم، وجلالة الملك إذن هو الذى تفضل فأمر الوزارة أن ترصد من أموال المسلمين ما تحمى به فقراء المسلمين من عبث المبشرين..

ولكنها أنفذت أمر جلالة الملك كما استطاعت وكما وسعتها الشجاعة، فجاء سعيها منقوصًا وعملها بعيدًا عن التوفيق. نعم،لو أنفذت الوزارة أمر جلالة الملك على وجهه لما اكتفت بنفى مبشرة من أرض مصر، بل لعطلت هذه المدرسة تعطيلًا ولقطعت على المبشرين كل سبيل للعبث بدين الأطفال فى بورسعيد..

إن الوزارة تشفق مما طلبنا إليها من العلاج الصحيح لمسألة التبشير ومن الدفاع الصحيح عن الدين والقومية والأخلاق، تشفق من المراقبة الدقيقة التى نلح فى أن تفرضها الدولة على المدارس الحرة، سواء منها المصرية أو الأجنبية، تشفق من هذا لأنها تشفق من الامتيازات، ولأنها تخاف إن سعت إلى فرض المراقبة على المدارس الأجنبية أن يتنكر لها الأجانب ويزودون عنها، وهى على رضى الأجانب حريصة وإلى عطف الأجانب محتاجة وفى حب الأجانب راغبة ... فرض المراقبة على المدارس الحرة وحده الخليق بحماية الأخلاق المصرية من عبث المفسدين، وهو وحده الخليق بحماية القومية المصرية من تأثير القوميات الأجنبية وهو وحده الخليق بحماية الإسلام من عدوان المبشرين..

هؤلاء الذين أقبلوا إلى هذه البلاد ضيوفًا لم يرعوا لها حرمة، ولم يحفظوا لها عهدًا، وإنما اعتدوا على أهلها

جميعًا سواء منهم المسلمون أو غير المسلمين يفتنونهم في دينهم ويصرفونهم عنه بألوان الغواية وضروب الإكراه.. هؤلاء هم الذين أثاروا الفتنة وقد أثاروها مرة ومرة ... ولقد قصرت الحكومة أو عجزت عن النهوض بواجبها فلم تحم دين المصريين ولا كرامتهم ولا عزتهم القومية، حتى انتهى الشر إلى غايته وبلغ عدوان هؤلاء الناس أقصاه، فإذا الصبيان ينصرون جهرة، ويصرفون عن دينهم في وضح النهار، وإذا أحكام القضاء تعطل وتعجز الحكومة عن إنفاذها،وإذا أوامر الحكومة تهمل وتعجز الحكومة عن أخذ هؤلاء الناس باحترامها، وإذا ضروب الكيد للمصريين تكثر وتنتشر حتى تتناول كل شيء،فالفتيات يكرهن على التنصير إكراهًا، والفتيات يسلط عليهن الحب حتى إذا تورطن فيه دفعهن إلى الردة وجعل لغير المسلمين سلطانًا عليهن فلما انتهى الأمر إلى هذا النكر، وضج الناس من شره، همت الحكومة بشيء من الحزم ولكنها لم تبلغ به شيئًا، فهذه مبشرة بورسعيد سافرت ولكنها توشك أن تعود، وهذه مبشرة أخرى تتحدى الحكومة فتأبى أن تسلم بها الفتيات المسلمات،وهذا حكم من أحكام القضاء بالفرقة بين مسلمة ومسيحي لا تجد الحكومة إلى إنفاذه سبيلًا..

هؤلاء الفتيات المصريات اللاتي يغتصبهن المبشرون اغتصابًا...

إننا ننبه الوزارة والبرلمان إلى أن أمر المبشرين إن ترك كما هو فسينتهي بالبلاد إلى فتنة منكرة لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة،ولكنها تصيب الآثم والبريء، وإن أول

واجب على الوزارة والبرلمان اللذين يحرصان على إقرار النظام وتثبيت الأمن أن يدفعا شر هذه الفتنة عن الناس، ويدفعاها في أسرع وقت . . .

إن الشعب ثائر مضطرب لما يلقى أبناؤه وبناته من كيد المبشرين وعبثهم بالدين، وطغيانهم على الأخلاق والأعراض. فالشعب يسخط ويشكو، والشعب يلح في السخط ويغرق في الشكوى، والشعب لا يستريح ولا يريح الصحف، كأنه يعتقد أن قد أصبح الأمر إلى الصحف ،فهي قادرة على أن تجلي المبشرين عن مصر، وتغلق معاهدهم وملاجئهم ،وترد عدوانهم على أبناء المسلمين وبناتهم، وتصد طغيانهم على الدين والأخلاق . . .

إذا اعتدى المبشرون من الأجانب على صبيان المصريين من أبنائهم وبناتهم، ففتنوهم في دينهم وسلكوا إلى ذلك طرق الإكراه والتعذيب حينًا وطرق الإغواء والإغراء حينًا آخر، وطرق العبث والخداع وإفساد الإرادة بالتنويم المغناطيسي مرة ثالثة إذا فعل المبشرون هذا كله، وقامت عليه الحجة الواضحة ونطقت به الحقائق الواقعة، واعترف به المبشرون أنفسهم، واعترفت به الوزارة نفسها، واعترف به البرلمان نفسه ،ثم أنكره المصريون واحتجوا عليه وطلبوا أن يصرف عنهم هذا الشر ويرفع عنهم هذا الضر، غضب الأجانب وسخط الإنجليز ،وقالت التميس : إن المعارضين يتخذون قصة التبشير وسيلة إلى إحراج الحكومة والكيد لها . . .

هؤلاء الأجانب من المبشرين وغير المبشرين يخشون

الفتنة ويشفقون منها ،ولكنهم يثيرونها ويلحون فى إثارتها، فمن المحقق أن المصريين لم يدعوهم إلى مصر وإنما هم الذين جاءوا مصر طائعين، ومن المحقق أن المصريين لم يطلبوا إليهم التبشير فى مصر، وإنما هم الذين بشروا فى مصر طائعين، ومن المحقق أن المصريين لم يأمروهم بأن يسلكوا إلى التبشير طرق الإثم والعدوان، وإنما هم الذين سلكوا هذا الطريق طائعين، ومن المحقق أن المصريين قد شكوا إلى حكومتهم واستعانوا بهذه الحكومة ومازالوا يشكون إليها ويستعينون بها على اتقاء الفتنة قبل وقوعها، والاحتياط للشر قبل أن يصيب الآثم والبرئ، ومن المحقق أن المصريين على كثرة ما يجدون من الشر ويتحملون من الضر يتواصون بالصبر ويتواصون باللين، ويتواصون بالمحافظة على الأمن والنظام، ولكن هؤلاء المبشرين لا يقفون عند شيء من ذلك ولا يحفلون بشيء من ذلك وإنما يريدون أن يباح لهم كل شيء ، ويؤذن لهم فى كل شيء وألا يقاوموا فى شيء، فإن رضى المصريون بهذا فذاك، وإلا فهم أصحاب الفتنة والدعاة إليها، وهم أعداء الأمن والخارجون على النظام» ! ![71]

هكذا كتب طه حسين - بفروسية مبهرة - فى مواجهة زلزال التنصير والمنصرين - سنة ١٩٣٣م - فدافع عن الإسلام، والقيم، والقومية، والعزة الوطنية، ضد العبث

---

(٧١) [تراث طه حسين] جـ٣ ص ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٤، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨١.

والردة والكفر والاغتصاب والإغواء والإغراء والخداع الذى مارسه المنصرون الأجانب على أعز ما يملك المسلمون المصريون: دين الإسلام..

ولقد سقنا هذه المقتطفات من كتابات طه حسين - فى هذه المعركة - ليعرف القراء أثر هذا الزلزال فى التطور الفكرى الذى دفع كوكبة من كبار المفكرين المصريين إلى الانتصار للإسلام، والدفاع عن هوية الأمة، فانتقل بهم من العلمانية الغربية إلى الكتابة فى الإسلاميات.. وكان طه حسين واحدا من كبار هؤلاء المفكرين.

وفى العام التالى سنة ١٩٣٤م تصدى طه حسين لفتنة البهائية والبهائيين، الذين مارسوا عدوانًا على دين الإسلام الدين الرسمى للدولة والأمة وعلى القرآن الكريم فكتب فى صحيفة [الوادى] الوفدية بتاريخ: ٥ / ٧ / ١٩٣٤م يقول تحت عنوان «فتنة»: «إن فتنة أخرى يراد لها أن تثور، وإن محنة أخرى يراد لها أن تفرض على بعض المصريين فى هذا الصيف كما ثارت فى الصيف الماضى فتنة منكرة، وكما فرضت فى الصيف الماضى محنة آثمة مازال الناس فى أعقابها إلى الآن [المبشرين]..

ولعلك قرأت ما نشر فى [الوادى] أمس من أنباء بورسعيد. جماعة من البهائيين ينشرون الدعوة لمذهبهم فيما يقال، ويسلكون إلى ذلك طرقًا ملتوية، ممجوجة، ليس فيها اعتداء على أعراض الناس وليس فيها استقواء للأطفال، ولا إغراء للضعفاء - كفتنة المبشرين - ولكن فيها عبثًا بالقرآن الكريم، ومسخًا لألفاظه المقدسة، وتحريفًا لكلمه الذى

يجب أن يرتفع عن التحريف فهم ،فيما يقال ، يلتون قول الله تعالى :﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ ثم يزعمون أن الراء فى ﴿ رَبِّهَا ﴾زائدة ويتلون قوله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» فيفتحون أفواههم حين ينطقون بباء الجر ليثبتوا أن القرآن قد بشر بالبهائية وأشار إليها .

فهذا العدوان ، إن صح ينكره القانون ، ويعاقب عليه ؛لأن إباحة الحرية للناس محدودة بأن تظل هذه الحرية بعيدة كل البعد عن أن تكون عدوانًا وطغيانًا وإهانة ،وأى عدوان أو طغيان أو إهانة يشبه هذا العبث بنصوص القرآن فيما لا يحتمل تأويلًا ولا تعليلًا ، ولا شبهة فى أنه عبث منكر . . .

فنحب أن نعلم من الذى أبح الإفساد للبهائيين الذين يفسدون فى بورسعيد ، وحرم الإصلاح على المسلمين الذين يريدون الإصلاح فى بورسعيد ؟

ونحب أن نعلم أين نصوص الدستور الذى يبيح حرية الرأى والدعوة إليه للبهائيين ، ويحظر حرية الرأى والدفاع عنه على المسلمين؟ ونحب أن نعلم أين نص القانون الذى يجعل الإسلام غريبًا فى بلده ، والذى يكف دين الدولة عن أن يدافع عن نفسه بالمعروف ،والذى يسلط رجال الدولة ليمنعوا رجال دين الدولة من أن يحموا الدين ويحوطوه ؟

ليس لأحد من الناس منفعة فى أن تثور بين الناس فتنة كالتى ثارت فى العام الماضى ،وليس ينبغى لدولة تزعم أن دينها الرسمى هو الإسلام أن تصر على الاعتداء على هذا الدين الرسمى ، وألا تسمح لرجال هذا الدين بالزياد عنه ،

والقيام من دونه »[٧٢]

فكانت صفحة أخرى فى كتاب دفاع طه حسين عن الإسلام.

كما التفت طه حسين أثناء دراسته للحياة الأدبية فى شبه الجزيرة العربية إلى بواكير دعوات التجديد الإسلامية ،فكتب عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب[١١١٥ - ١٢٠٦هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢م] وعن دعوته ومذهبه كلامًا مدهشًا للذين وقفوا - ولا يزالون - عند مرحلة انبهار طه حسين بالغرب ،دون أن يتتبعوا مسيرة تطوره الفكرى - كلام مدهش لأنصار طه حسين وخصومه على حد سواء..

لقد كتب - في مجلة [الهلال] - عدد مارس سنة ١٩٣٣م عن الوهابية والسلفية يقول : «إن مذهب محمد بن عبدالوهاب جديد قديم معًا .جديد بالنسبة للمعاصرين، ولكنه قديم فى حقيقة الأمر ،لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقى المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية ،هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبى خالصًا مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب، فقد أنكر محمد بن عبدالوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية فى العقيدة والسيرة، كانوا يعظمون القبور ويتخذون من الموتى شفعاء عندالله، ويعظمون الأشجار والأحجار ويرون أن لها من القوة ما ينفع ومايضر، وكانوا قد عادوا فى سيرتهم

---

(٧٢) [تراث طه حسين] جـ٤ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .



إلى حياة العرب الجاهليين فعاشوا من الغزو والحرب ونسوا الزكاة والصلاة وأصبح الدين اسما لا مسمى له فأراد محمد ابن عبدالوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قومًا مسلمين حقًا على نحو ما فعل النبى بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرنًا .

ومن الغريب أن ظهور هذا المذهب الجديد فى نجد قد أحاطت به ظروف تذكر بظهور الإسلام فى الحجاز، فقد دعا صاحبه إليه باللين أول الأمر فتبعه بعض الناس، فلما أظهر دعوته أصابه الاضطراب وتعرض للخطر، ثم أخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر كما عرض النبى نفسه على القبائل،ثم هاجر إلى الدرعية وبايعه أهلها على النصر كما هاجر النبى إلى المدينة.ولكن ابن عبدالوهاب لم يرد أن يشتغل بأمور الدنيا، فترك السياسة لابن سعود(١١٧٩هـ ١٧٦٥م) واشتغل هو بالعلم والدين،واتخذ السياسة وأصحابها أداة لدعوته،فلما تم له هذا أخذ يدعو الناس إلى مذهبه،فمن أجاب منهم قبل منه ومن امتنع عليه أغرى به السيف وشن عليه الحرب. وقد انقاد أهل نجد لهذا المذهب وأخلصوا له الطاعة وضحوا بحياتهم فى سبيله على نحو ما انقاد العرب للنبى وهاجروا معه.

ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب،وحاربوه فى داره بقوة وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها لكان من المرجو جدًا أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب فى القرن الثانى عشر للهجرة كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم

فى القرن الأول . ولقد ترك هذا المذهب أثره فى الحياة العقلية والأدبية عند العرب ،وكان هذا الأثر عظيمًا خطيرًا فى نواح مختلفة .فهو قد أيقظ النفس العربية ووضع أمامها مثلًا أعلى أحبته وجاهدت فى سبيله بالسيف والقلم واللسان ، وهو قد لفت المسلمين جميعًا ،وأهل العراق والشام ومصر بنوع خاص إلى جزيرة العرب ولقد استدعى الصراع الفكرى بين الوهابيين وخصومهم الرجوع إلى كتب التراث ونشر الرسائل والكتب التى يؤيد بها كل فريق مذهبه ،فنشرت كتب ابن تيمية وابن القيم(٦٩١-٧٥١هـ،١٢٩٢ - ١٣٥٠م) واستفاد العالم العربى كله من هذه الحركة العقلية الجديدة .

وظهر حول الأمراء المجاهدين من أهل نجد جماعة من الشعراء عادوا بالشعر إلى الأسلوب القديم ،وأسمعونا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر فى لغة عربية فصيحة هذه النغمة العربية الحلوة التى لم تكن تسمع من قبل النغمة التى لا تقلد أهل الحضر ولا تتكلف البديع ،وإنما تنبعث حرة ، تحمل كل ما تجيش به نفس صاحبها من عزة وطموح إلى المثل الأعلى ،ورغبة قوية فى إحياء المجد القديم(٧٣)

فإذا جئنا إلى موقف طه حسين من علاقة الإسلام بالسياسة وجدنا له كتابات تناقض ما جاء عن هذه القضية فى كتاب (الإسلام وأصول الحكم)سنة ١٩٢٥م وما جاء عنها فى كتاب[مستقبل الثقافة فى مصر]سنة ١٩٣٨م وجدنا كتابات

---

(٧٣) [تراث طه حسين]جـ٢ص٥٤٦ ، ٥٤٧ .



تقدم الإسلام منهاجًا شاملًا للحياة ،بما فى ذلك السياسة والقانون ومنظومة القيم الحاكمة لمختلف جوانب الحياة فهو يكتب -فى صحيفة [الوادى]- بتاريخ ٢٠ / ٨ / ١٩٨٤م ، تحت عنوان[سياسة] يقول: « يقال إن خلاصة الدين المسيحى لا تحب السياسة ، ولا تميل إلى أن يشتغل بها من يريد أن يخلص قلبه لله ، ويصفو ضميره لخدمة الدين ،وأصل هذه الفكرة فيما يظهر ما نصح به الإنجيل من ترك مالقيصر لقيصر وما لله لله ،وقد يكون من الممكن أن يتم التفريق بين السياسة والدين ،فيفرغ للسياسة قوم وللدين آخرون ولكن الشيء الذى لاشك فيه هو أن الإنسان مهما تكن قوته ، ومهما يكن حظه من صدق الإرادة مضطر أن ينهض بطائفة من التكاليف تختلط فيما بينها اختلاطًا شديدًا فهو مضطر إلى أن ينهض بتكاليفه الدينية العادية إن كان رجلًا عاديًا ، وبتكاليفه الدينية الخاصة إن كان رجلًا قد قصر حياته وجهوده على خدمة الدين ،وهو فى الوقت نفسه مضطر إلى أن ينهض بتكاليف السياسة العادية فما نعلم أن رجال الدين قد حرموا من حقوقهم الانتخابية ،وإذن فهم يستمتعون بها على أنهم رجال عقلاء لا يقدمون إلا عن علم ،ولا يعملون إلا على بصيرة وفهم، هم إذن مضطرون إلى أن يعرفوا أين يضعون أصواتهم الانتخابية ولمن يمنحون تأييدهم السياسى من هؤلاء الساسة الذين يختصمون فيما بينهم ويتنازعون تدبير الأمور العامة .

فهم إذن مضطرون إلى أن يعنوا بالسياسة كما يعنون بالدين ،ومن العسير عليهم أن يفرقوا بين أنفسهم إلى هذا

الحد الغريب ،فإذا اشتغلوا بالدين نسوا السياسة نسيانًا تامًا ،وإذا اشتغلوا بالسياسة جهلوا الدين جهلًا تامًا .

هذا شيء لاسبيل إليه ، ومن أجل ذلك اشتغل رجال الدين بالسياسة ،واشتغل رجال السياسة بالدين ،ونشأ عن هذا تعقيد فى الحياة السياسية الديمقراطية ،ووجدت أحزاب دينية سياسية فى كثير من البلاد الأوربية ،وأصبح من الغريب حقًا أن يقال لرجال الدين لا تشتغلوا بالسياسة ،وأن يقال لرجال السياسة لا تشتغلوا بالدين ، وقد حاولت بعض البلاد الديمقراطية الفصل بين الدولة والكنيسة ،فوفقت إلى هذا ،ولكنها لم تضع رجال الدين بمعزل عن السياسة ولم تستطع أن تكفهم عن العناية بها . ومن أقبح الخطأ وأشنعه أن يظهر أن الأساقفة والقسس فى فرنسا لا يحفلون بالسياسة ولا يعنون بها منذ صدرت قوانين الفصل بين السياسة والدين ،وإنما يشتغل الأساقفة والقسس فى فرنسا بالسياسة كغيرهم من الناس ،يؤيدون حزبًا ويخذلون حزبًا يفوز مذهبهم فى انتخاب وينهزم فى انتخاب آخر ،يؤثرون فى السياسة ويتأثرون بها ،ويقصرون جزءًا عظيمًا جدًا من نشاطهم على هذا النحو من أنحاء الحياة العامة . .

على أن هناك مسألة أخرى هى التى ينبغى أن نفكر فيها تفكيرًا طويلًا دقيقًا ، وأن نسأل عن جوابها سؤالًا متصلًا ملحًا ، وهى :إن الإسلام لم يوص بأن يترك مالقيصر لقيصر ومالله لله ، وإنما جعل الأمر كله لله ، وجعل سلطان قيصر مستمدًا من سلطان الشعب وسلطان الشعب مستمدًا من

سلطان الله ،وجعل السياسة إذن أصلًا من أصول الدين ،وركنًا من أركانه ،ولم يبح لرجال الدين أن يعرضوا عن السياسة ،أو يزهدوا فيها أو يصرفوا أنفسهم عنها ،ولاسيما حين تكون العناية بالسياسة من هذه الضرورات العامة التى تمس حياة الناس جميعًا ومرافقهم جميعًا.

إن المصريين الذين يلومون أساقفة الإنجليز والمبشرين الأمريكيين على عنايتهم بالسياسة واندفاعهم فيها ،خليقون أن يلوموا علماء الإسلام على تخاذلهم عن السياسة ،وتكاسلهم عن النهوض بحقها ،وركونهم إلى هذا الحياد الذى لا يشرف أصحابه(٧٤)

كما يكتب طه حسين - فى مجلة [الهلال] عدد ديسمبر ١٩٤٠م عن الأمة الإسلامية ، وعن أن الإسلام هو أساس الحياة الخلقية والسياسية والعلمية ، فيقول :«فالدين الإسلامى كان وسيكون دائمًا أساس الحياة الخلقية للأمة الإسلامية ، وقد كان فى عصر طويل أساس الحياة السياسية والعملية لهذه الأمة أيضًا ،وهو الآن وسيكون دائمًا أساسًا لهذه الحياة السياسية والعملية إلى حد بعيد»(٧٥)

ويحاضر طه حسين بالجامعة الأمريكية - فى ٢ فبراير سنة ١٩٤١م - فيتحدث عن أن الدين مقوم من أهم المقومات وأساس من أهم الأسس التى تقوم عليها الحياة .. فيقول :

---

(٧٤) [تراث طه حسين] جـ٤ ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦

(٧٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٨٤ .

«..وحياتنا ـ أيها السادة ـ مؤسسة على أشياء من أهمها الدين والدين الذى تحيا عليه الأمة المصرية الإسلام والمسيحية وكثرة المصريين مسلمة، وقلة المصريين مسيحية ، والدين يقوم قبل كل شىء على المساواة وعلى تحقيق العدل، ويجتمع على إلغاء الفرق بين الطبقات والتفرقة بين الناس فى الحقوق الواجبة.»[٧٦]

ويكتب طه حسين فى صحيفة (النداء) فى ١٨ / ١١ / ١٩٤٧م عن أن الإسلام قد بنى دولة خالدة إلى آخر الدهر بعد أن كان ينكر دور الدين فى بناء الدول والأوطان سنة ١٩٢٥م سنة ١٩٣٨م.. فيقول :

« وعندما بلغ محمد دار هجرته.. بنى المسجد..،فأسس فى الأرض أول بيت خالص للدين الجديد ،وآخى بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، وأسس هذه الدولة التى نشرت فى الأرض نور الدين الجديد.. لقد أنشأ هو وأصحابه دولة مازالت آثارها خالدة، وستظل خالدة إلى آخر الدهر ،لاسبيل إلى إحصائها إلا أن تكون هناك سبيل إلى إحصاء الخلود»[٧٧]

* * *

ولقد كان الأزهر- إبان هذه المرحلة من التطور الفكرى لطه حسين واعيًا بهذه الحقيقة بل ومبادرًا فى ظل مشيخة العالم المجدد الشيخ محمد مصطفى

---

(٧٦) [أوراق طه حسين ومراسلاته] جـ٢ ص ٢٣.
(٧٧) [تراث طه حسين]جـ٢ص ٧١.

المراغى[١٢٩٨-١٣٦٤هـ،١٨٨١- ١٩٤٥م] إلى مد الجسور مع طه حسين -بعد عقود من الصراع العنيف بينهما . .

ففى سنة ١٩٣٦م وفى ظل حكومة الوفد -بعد عهد صدقى -وبعد أن كتب طه حسين [على هامش السيرة]وبعد أن عاد الشيخ المراغى إلى مشيخة الأزهر -بعد هذه التحولات ،وفى ظل هذه الملابسات وبعد أن بادر المراغى بالتقديم لكتاب هيكل[حياة محمد] بادر الأزهر بمد اليد لطه حسين، فطلب المراغى إلى مدير مجلة [الأزهر] محمد فريد وجدى أن يدعو طه حسين للكتابة عن ميلاد الرسول ﷺ فى العدد الممتاز الذى ستصدره المجلة فى ١٢ ربيع أول سنة ١٣٥٥هـ فكتب فريد وجدى وهو الذى سبق ونقض كتاب [فى الشعر الجاهلى] إلى طه حسين هذه الرسالة :«مصر فى ٦ أبريل سنة ١٩٣٦م.

حضرة صاحب العزة العلامة الكبير الدكتور طه حسين بك:

تحية واحترامًا..وبعد،فإنى من الذين يقدرون ألمعيتكم كل التقدير، ويعجبون بتراث قريحتكم أيما إعجاب، فاسمحوا لى بناء على هذه الصلة المعنوية أن أكتب إليكم .

قد اعتزمت إدارة مجلة الأزهر أن تصدر عددًا ممتازًا فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول فى مناسبة ميلاد النبى ﷺ تقتصر الكتابة فيه على عدد قليل من جهابذة الكتاب،وقد فكرت فيكم قبل سواكم.

وقد كلفنى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر، وقد ذكرت له ذلك ،أن أبلغكم أنه يسره جدًا أن يرى لعزتكم مقالاً فى هذا الموضوع .

فأرجو أن يكون فاتحة التعارف بيننا قبول رجائى هذا، وأملى أن تصلنى كلمتكم فى أوائل صفر من السنة الحالية.

وتفضلوا بقبول احترامى الفائق، مصحوبًا بتقديرى العظيم لمواهبكم الممتازة.

المخلص

مدير مجلة الأزهر

محمد فريد وجدى

ولقد استجاد طه حسين فرد بالإيجاب على دعوة الأزهر هذه.. وكتب بذلك إلى محمد فريد وجدى، الذى بادر فكتب إليه هذه الرسالة الثانية:

« مصر فى ١٥أبريل سنة ١٩٣٦م.

حضرة الأستاذ الكبير صاحب العزة طه حسين بك.

تحية واحترامًا ،وبعد، فقد تشرفت بكتاب الأستاذ فلم أعجب من أن يكون فضله عند ظنى به. وإنى لمغتبط بهذه الفرصة التى سنحت لى لمكاتبته، فأرجو أن يكون هذا التعارف الكتابى مقدمة لتعارف جثمانى يتلوه اتصال وثيق به.

وليأذن لى أن أشكره أيضًا على ما نعمنى به من أدبه، زاده الله كمالا، وجزاه على فضله بما يجزى به الكرام من خلقه. سأقوم بإبلاغ فضيلة الأستاذ الأكبر ما استودعتمونيه من التحية ومن قبول دعوته. فتفضلوا يا حضرة الأستاذ الكبير بقبول احترامى موفورًا وشكرى مكررًا.

المخلص

محمد فريد وجدى [٧٨]

ولفهم هذه المبادرة الأزهرية تجاه طه حسين، علينا أن نفهم أن الشيخ المراغى - بثاقب فكره المجدد - كان يرى أن عودة واحد من الذين بهرتهم النظريات الغربية إلى أحضان الإسلام، أجدى على الإسلام من كثير ممن عاشوا حبيسى التراث الإسلامى وحده، لأن هؤلاء الذين رأوا عظمة الإسلام بإزاء حجم «الآخر» ورأوا هذا «الآخر» مقارنًا بالإسلام، هم أقدر على محاورة الآخر، ورد شبهاته، والأقدار على ملء الفضاء الفكرى بالإسلام المتجدد، الذى يحول بين الآخر وبين التمدد فى هذا الفضاء.. وهو القائل:

« إذا استطاع أهل الأديان كسب المستنيرين من تيارات التقدم العقلى والتحرير الفكرى، وإيجاد الشعور الدينى فى قلوبهم، فإنهم يكونون قوة فعالة فى تنمية وسائط الإخاء البشرى، ذلك بقوة إحساسهم ودقة إدراكهم واستطاعتهم فهم ما فى الأديان من معان روحية سامية مجردة عن المادة

(٧٨) [أوراق طه حسين ومراسلاته] جـ١ص١٩٩، ٢٠١.

يصعب فهمها على أكثر العامة ممن لم يهذبهم العلم وتنر طريقهم الفلسفة[٧٩]

ولقد بادر طه حسين بالرد على تحية الأزهر هذه ،بأن أفصح عن نظرة جديدة لهذا المعهد العريق، وكيف أنه النموذج الأعرق فى تربية أبنائه على الحرية والاستقلال: فقال - فى محاضرة له بكلية العلوم - بتاريخ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٤١م :- «كانت حياتى فى الجامعة تمتاز بالحرية التى لا حد لها، وتعرفون أنى بدأت التعليم فى الأزهر، ولقد كان الأزهر بيئة حرة إلى أوسع ما تستطيعون أن تتصوروا يحضر فيه من يشاء ويتغيب من يشاء.. كنا نستمتع بحرية لا حد لها اثنى عشر عامًا كاملة، حتى إذا أتممنا هذا الدهر تقدمنا للامتحان، فإما أن ننجح فنصبح علماء، وإما أن نرسب كما رسبت أنا [تصفيق].

وكنا أحرارًا مع أساتذتنا، فنحضر إلى دروسهم ونسمع منهم، وأؤكد لكم أننا كنا نعذبهم أكثر مما كانوا يعذبوننا، كنا نناقشهم، ونطيل عليهم. وأذكر أن بعض أساتذتنا - عندما كنت أناقشه كان يرفع يديه إلى السماء ويقول : «الله حكم بينى وبينك يوم القيامة» وكنا نطيل فى المناقشة، ولاسيما فى دروس الفقه والنحو والبلاغة وأذكر أننا فى دروس الشيخ بخيت[١٢٧١- ١٣٥٤هـ، ١٨٥٤-١٩٣٥م] رحمه الله،

(٧٩) [رسالة الزمالة الإنسانية] انظر كتابنا [الشيخ المراغى والإصلاح الدينى فى القرن العشرين] ص١٠٢ ، طبعة دار السلام - القاهرة سنة ١٤٣٢هـ سنة ٢٠١١م.

كانت المناقشة فى المسائل الفقهية، وأطلت عليه فلم يسأم ولم أسأم أنا أيضًا، وإنما سئم الطلاب لأنهم كانوا فى حاجة إلى أن يفطروا قبل أن ينفد الفول، فيتعجلوا الأستاذ فى إتمام الدرس، ويصارحوه بالأسباب، وأن الفول يوشك أن ينفد، فأجابهم الأستاذ: والله لن ننتهى حتى يقتنع هذا المجنون.

ثم لم نكن أحرارًا فى مناقشاتنا فحسب، وإنما كنا أحرارًا فيما نتحدث فيه إلى أساتذتنا فنقول كل ما يخطر ببالنا، وكثيرًا ما كنا نقول سخفًا كثيرًا، وكان أساتذتنا يقولون سخفًا كثيرًا أيضًا، ثم كنا نخلوا إلى أنفسنا فى جماعات الطلبة فنسخر مما قال الأساتذة، ولعل الأساتذة كانوا إذا خلوا إلى أنفسهم سخروا مما قال الطلاب، واستعدوا لدرس الغد.

وكذلك أنفقت ما أنفقت فى الأزهر حرًا، أرضى الأساتذة حينا وأغضبهم حينًا آخر، وأقاد للمحاكمة بين يدى الشيخ حسونة [النواوى ١٢٥٥- ١٣٤٣هـ ١٨٤٠- ١٩٢٥م] وأطرد من الأزهر، وأذهب إلى لطفى باشا وأشكوا من الشيخ حسونة فيصلح بينى وبينه، ثم أرد إلى الأزهر، وهكذا كانت حياتى الأولى حرية كاملة .

ثم اتصلت بالجامعة القديمة، فإذا هى أنشئت على نحو ما كانت عليه الجامعات الأوربية، أى أنشئت على نظام حر يشبه فى كثير جدًا من الوجوه نظام الأزهر، وأذكر أننا كنا نناقش فى الجامعة القديمة كما كنا نناقش فى الأزهر.

ثم أرسلت إلى فرنسا، واستمعت إلى أساتذتى فى السوربون، وكان دهشى عظيمًا عندما رأيت أنها ليست أقل

حرية من الأزهر، بل كان دهشى شديدًا عندما رأيت أن من الدراسات دراسات تشبه دراسة الأزهر، فهناك دراسة نصوص وتفسير ألفاظ ومعانى ووقوف عند الألفاظ، وأن هذا اللفظ تقدم وكان ينبغى أن يتأخر، وهذا تأخر وكان يجب أن يتقدم، وكذلك كانت دراستى فى السربون حرة من جميع الوجوه.

فليس من الغريب أن أعود إلى القاهرة وقد اقتنعت وامتلأت نفسى بأن دراسة العلم لا تصلح وتثمر وتنتج إلا إذا كانت حرة على هذا النحو أو الأنحاء التى رأيتم فى أقدم الجامعات فى الأزهر، وفى أحدثها فى الجامعة المصرية، وفى أخرى تتوسط بينهما[٨٠]

وبعد أن كان طه حسين فى مرحلة انبهاره بالغرب - يلتمس الأصالة فى النموذج الغربى وجدناه يدعو إلى التماس هذه الأصالة فى تراثنا الإسلامى، فيكتب - فى كتابه [صوت أبى العلاء] سنة ١٩٤٤م، يقول:

وليس شبابنا بحاجة إلى أن يلتمسوا التشاؤم عند «نيتشه» [١٨٤٤- ١٩٠٠م] و«شوبنهور» [١٧٨٨- ١٨٦٠م]، ولا أن يلتمسوا النقد الخلقى عند «لاشفوكو» وأمثاله من نقاد الأخلاق والاجتماع، وعندهم أبو العلاء، وقد امتلأت آثاره بالنقد السياسى والخلقى والاجتماعى، وبتصوير الرجولة ومثلها العليا فليلتمس شبابنا هذه المعانى عند أسلافهم من شعراء المسلمين وفلاسفتهم، وعند أبى العلاء منهم خاصة.

---

(٨٠) (أوراق طه حسين ومراسلاته) جـ٢ص ٣٦، ٣٧.

وليقرأ شبابنا بعد ذلك هذه الخواطر والمعانى عند الفلاسفة والأدباء والمتشائمين فى اللغات الأخرى، قراءة الغنى المستطلع،لا قراءة المعدم الذى يلتمس الثروة عند غيره والثراء منه قريب [٨١]

فإذا جئنا إلى كتابه عن الفتنة الكبرى جـ١ سنة ١٩٤٧م وجـ٢ سنة ١٩٥٣م - وجدناه - ولأول مرة فى تاريخه - يبدأ الكتاب بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) ويصلى فى الجزء الأول سنة ١٩٤٧م على الرسول ﷺ مرتان أما فى الجزء الثانى سنة ١٩٥٣م فإنه يصلى على الرسول ﷺ قرابة العشرين مرة مع بدء هذا الجزء أيضا بـ بسم الله الرحمن الرحيم وفى هذا الكتاب يعرض طه حسين لأمرين مهمين :

الأول : تقييمه لطبيعة الفتوحات الإسلامية . . فبعد أن كان يعتبرها غزوا . . وجدناه يقول عنها :« لم يكن الفتح الإسلامى فتح تغلب وجباية، وإنما كان فتح إصلاح وهداية لم يكن فتح غلب وتسلط، وإنما هو فتح رعاية ورفق وإصلاح » [٨٢]

الثانى: تقيمه للخلافة الإسلامية فبعد النظرة السلبية بل العدائية - لهذه الخلافة - فى كتاب (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥م وغيره وجدناه يقدم لهذا النظام صورة رائعة وتحليلاً دقيقًا، يناقض كل المناقضة رأى لتلاميذ الكذبة

---

(٨١) طه حسن (صوت أبى العلاء)ص٩ طبعة مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة - القاهرة سنة ٢٠١٤م.

(٨٢) طه حسين (الفتنة الكبرى) : عثمان - ص ٥٩ ، ٦٩ ، طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٤م.

الذين يتمسحون فى طه حسين .. رأيناه يقول عن الخلافة الإسلامية أى نظام الحكم الإسلامى :- « قد يظن بعض الذين تخدعهم ظواهر الأمور أن نظام الحكم الإسلامى (فى العهد النبوى وفى الخلافة) كان نظامًا ثيوقراطيًا يستمد سلطانه من الله، ومن الله وحده، ولا شأن للناس فى هذا السلطان.. ولاشك أن هذا الرأى هو أبعد الآراء عن الصواب.. ذلك أن الإسلام لم يسلب الناس حريتهم، ولم يملك عليهم أمرهم كله، وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها لهم لقد ترك لهم عقولاً تستبصر، وقلوبًا تستذكر، وأذن لهم فى أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

وما من شك فى أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضًا إلا أن يعطوه عهده ويأخذ منهم عهدهم، ثم يمض فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم فالخلافة الإسلامية عهد بين المسلمين وخلفائهم ولقد قام أمر الخلافة كله على البيعة، أى على رضى الرعية، فأصبحت الخلافة عقدًا بين الحاكمين والمحكومين، يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل، وأن يرعوا مصالحهم، وأن يسيروا فيهم سيرة النبى ما وسعهم ذلك، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا وأن ينصحوا ويعينوا .. ولقد كان سلطان الخليفة مقيدًا بالحدود التى رسمها الدين، وبما يرى كبار الصحابة من رأى، وبما تميل إليه أو تنحرف عنه عامة المسلمين. لذلك فإن الرأى القائل بأن

نظام الخلافة إنما هو النظام الثيوقراطى الإلهى .. هو أبعد الآراء عن الصواب . لم يكن نظام الحكم الإسلامى نظام حكم مطلق، ولا نظامًا ديمقراطيًا على نحو ما عرف اليونان، ولا نظامًا ملكيًا أو جمهوريًا أو قيصريًا مقيدًا على نحو ما عرف الرومان، وإنما كان نظامًا عربيًا خالصًا، بين الإسلام له حدوده العامة من جهة، وحاول المسلمون أن يملئوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى .. لقد كان نظامًا إنسانيًا، ولكنه على ذلك تأثر بالدين إلى حد بعيد جداً

لم يكن الخليفة يصدر عن وحى أو شىء يشبه الوحى فى كل ما يأتى وما يدع، ولكنه على ذلك كان مقيدًا بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغى»[٨٣]

فإذا جئنا إلى دراسته الاجتماعية عن (المعذبون فى الأرض) سنة ١٩٤٦ سنة ١٩٤٧م وجدناه عند حديثه عن الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف ـ المعنونة (ثقل الغنى) ـ ولأول مرة فى كتابه يكرر الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ المرات العديدة، حتى فى الصفحة الواحدة .

ولقد وفق طه حسين فى هذا الكتاب للانتصار لقضية العدالة الاجتماعية، حتى لقد تفوق على موقف الحركات الإسلامية المعاصرة له إزاء هذه القضية المحورية .. فهو قد زامن كتاب الشيخ محمد الغزالى (١٣٣٥ـ١٤١٦هـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م)

---

(٨٣) المصدر السابق ـ جـ١ ص٢٢، ٢٥ - ٢٧، ٣٢، ٣٣ .

(الإسلام والأوضاع الاقتصادية) وسبق كتاب سيد قطب (١٣٢٤-١٣٨٦هـ، ١٩٠٦-١٩٦٦م) (العدالة الاجتماعية) ونافس التوجهات الاشتراكية ودعا إلى تجنيب مصر طريق الثورات المدمرة.. وكان تعنيفه للأغنياء إبان شيوع وباء الكوليرا موقفًا ثوريًا، حيث كان مفكرون كبار يقفون في صف الأثرياء، ويناصرون أحزاب الأقليات والقصر الملكي:

وفي هذا الكتاب لجأ طه حسين إلى التاريخ الإسلامي ليوجه الأنظار إلى فلسفة الإسلام وتطبيقاتها في العدالة الاجتماعية فكتب عن تضامن عمر بن الخطاب وسخاء عثمان بن عفان وإنفاق عبدالرحمن بن عوف .. وذلك حتى يتكون بمصر «جيل من الناس لا يكون الرجل فيه عبدًا للمال ولا موقوفًا للثروة، وإنما يكون المال فيه عبدًا لمالكه، وتكون الثروة فيه وسيلة إلى إعانة المنكوب وإغاثة الملهوف، وإنقاذ المحروم، ثم إلى إثارة هذه العاطفة الحلوة التي يجدها الرجل الكريم حين يحس أنه قد أعان منكوبًا وأغاث ملهوفًا وأنقذ محرومًا وبر صديقًا وتصرف في ماله ولم يدع ماله يتصرف فيه»(٨٤)

وهو بعد أن يدعو الأغنياء إلى قراءة عدالة الإسلام الاجتماعية، ونماذجها في صدر الإسلام يتمنى على هؤلاء الأغنياء « أن يصدقوا وعد الله أو يمتحنون هذا الوعد فليتهم ينفقون مخلصين غير مرائين ليثبتوا أيخلف الله عليهم ما أنفقوا» ثم يقرع هؤلاء الأغنياء، فيقول: «ولكن، هيهات ليس

(٨٤) المعذبون في الأرض ص ١٧٩ طبعة دار المعارف القاهرة سنة ٢٠٠٨م.

إلى ذلك من سبيل، لأن أغنياءنا لايقرءون وهم إذا قرءوا لا يؤمنون، وهم إذا آمنوا لا يغامرون، وأهون عليهم أن يغامروا بالألوف فى ناد من أندية الميسر وميدان من ميادين السباق، من أن يغامروا بالألوف فى سبيل من سبل البر ليثبتوا أيصدقهم الله وعدهم أم لا»[٨٥] «إن الكثرة الكاثرة من هؤلاء الأغنياء: ألسنة طوال وعقول قصار وقلوب قاسية كالحجارة بل أشد قسوة، لذلك فلا أملك نفسى أن أتلو قول الله عز وجل:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾

(الإسراء: ١٦).

ولا أملك نفسى أن أتلو قول الله عز وجل[٨٦]:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾

(النحل: ١١٢)

هكذا جاء (المعذبون فى الأرض) ثورة على الظلم الاجتماعى الذى كان يطحن الأغلبية الساحقة من الفقراء والبؤساء .. لذلك، لم يكن غريبًا أن يتخذ القصر الملكى من هذا الكتاب موقفًا سلبيًا، وأن يقول الملك فاروق(١٣٣٨-

(٨٥) المصدر السابق ص ١٨١، ١٨٢.
(٨٦) المصدر السابق ص١٩١.

١٣٨٤هـ، ١٩٢٠- ١٩٦٥م) لطه حسين عند حلفه اليمين وزيرًا للمعارف فى حكومة الوفد سنة ١٩٥١م :«أنا أعرف الكلام الذى كتبته عن المعذبين فى الأرض، فاترك مثل هذا الكلام ولاتعد إليه مرة أخرى»!.

وفى كتابه (الوعد الحق) سنة ١٩٤٩م تتراجع «الأساطير» التى ميزت (على هامش السيرة) ويبرز فيه «التاريخ» وتتزايد فى قصصه العلاقة الحميمية بين طه حسين وبين رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم ودين الإسلام . . كما تتكرر فى فقرات الكتاب القريبة من الأخيرة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ثم يتزايد ذلك فى الفقرات الأخيرة على نحو ملحوظ.

وفى هذه السنوات الأخيرة من هذه المرحلة يتحدث طه حسين عن خلوته المحببة مع أبطال الإسلام الذين عايشهم فى إسلامياته هؤلاء الأبطال الذين نشروا فى الأرض نور الإسلام فيقول فى مسامرات الجيب بتاريخ ٢٠ / ٧ / ١٩٤٧م: «وليست الخلوة إلى النفس شيئًا ميسرًا، وأكاد أعتقد أنى لا أظفر بها إلا نادرًا وإنما الخلوة إلى النفس عندى هى أن أخلو إلى كتاب فأعاشر قومًا لاعهد لى بهم ،وقد عاشرت أثناء هذه الرحلة قومًا أحب عشرتهم أشد الحب ،وهم أولئك الذين نشروا فى الأرض نور الإسلام وأقاموا فيها مجد العرب»[٨٧]

هكذا تطور فكر طه حسين على طريق الإياب إلى الإسلام

(٨٧) تراث طه حسين جـ٢ص١٩.

وهكذا أسهم بحظ وافر فى الإسلاميات عبر هذين العقدين من السنوات (١٩٣٢-١٩٥٢م)

لكن بقيت قضيتان من قضايا فكر طه حسين إبان عقد الثلاثينات تمثلان موقفًا نشازًا من هذا التطور الذى أصاب فكر طه حسين.

الأولى : انحيازه سنة ١٩٣١م إلى فرعونية مصر والمصريين، ضد العروبة والانتماء العربى وقوله فى مجلة الهلال عدد إبريل سنة ١٩٣١م.

«إن مصر اليوم هى مصر بالأمس، أى مصر الفراعنة، والمصرى فرعونى، قبل أن يكون عربيًا، فلا تطلبوا من مصر أن تغير فرعونيتها ،وإن مصر لن تدخل فى وحدة عربية حتى ولا اتحاد عربى.. وهى ليست مستعدة للمساهمة فى الوحدة العربية أو القومية العربية.

ومع أن الدين العربى واللغة العربية مقومان أساسيان للحياة المصرية الحديثة..فإن الدين لا يصلح أن يتخذ أساسًا للوحدة»[88]

ولقد كانت النزعة الفرعونية ـ مثلها مثل الفينيقية فى ذلك التاريخ ـ نزعة قومية تقدم نفسها بديلًا للانتماء العربى الإسلامى، ولذلك مثلت ـ على مستوى الهوية ـ ستارًا للتغريب، وربما ـ عند البعض بديلًا غير إسلامى للتغريب ولقد كان هناك

---

(٨٨) تراث طه حسين جـ٢ص٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٢.

من أصدقاء طه حسين من بدأ مثله متغربًا ثم استبدل الفرعونية بالتغريب ثم انحاز إلى الهوية الإسلامية في حقبة الثلاثينيات كالدكتور / محمد حسين هيكل - الذى كتب - فى مقدمة كتابه [فى منزل الوحى] سنة ١٩٣٥م عن رحلته الفكرية من التغريب إلى الفرعونية إلى الإسلام ، فقال :« لقد خيل إلىَّ زمنا أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية هو سبيلنا إلى النهوض ثم أدركت أن ما فى الغرب من الحياة الروحية غير صالح لأن ننقله ، فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته ، خضع الغرب للتفكير الكنسى وبقى الشرق بريئًا من الخضوع لهذا التفكير فكيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق ، وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ؟ !

ثم انقلبت التمس فى تاريخنا البعيد ، وفى عهد الفراعين ، موئلًا لوحى هذا العصر ،ينشأ فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرًا للنهضة الجديدة ..

ورؤأت -نظرت- فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ،ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين . .لذلك لم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية[٨٩]

---

(٨٩) د/ محمد حسين هيكل (فى منزل الوحى) ص٢٢-٢٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

فهذا التطور الفكرى الذى غادر فيه هيكل الفرعونية إلى الإسلامية فى بداية الثلاثينات ،قد تأخر بالنسبة لطه حسين إلى ما بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م.

أما القضية الثانية ، التى ظلت « نتوءًا تغريبيًا » شاذًا فى فكر طه حسين - بحقبة الثلاثينات فهى دعوته للتغريب الحضارى - بكتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) سنة ١٩٣٨م .

ففى هذا الكتاب ظل طه حسين رابضًا فى قاع التغريب الحضارى ، يرى أن عقلنا كان ومايزال وسيظل غربيا أوربيا وأن الإسلام والقرآن لم يغيرا من الطبيعة الغربية لهذا العقل ، كما أن الإنجيل والمسيحية لم يغيرا من الطبيعة اليونانية للعقل الأوربى ،لأن الإسلام - برأيه - لا يفترق فى شىء عن المسيحية ومن ثم فإن تماهى عقلنا مع العقل الإغريقى والرومانى قبل الإسلام، يعنى تماهى هذا العقل مع العقل الأوربى الحديث .

بل لقد ذهب طه حسين فى هذا الكتاب الذى كتبه بعد توقيع مصر مع إنجلترا معاهدة الاستقلال سنة١٩٣٦م إلى أن هذا الاستقلال لا يجب أن يتعدى الاستقلال السياسى والتحرر من الامتيازات الأجنبية مع بقاء الالتزام بل وحتى الإلزام لبلادنا بأن تسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع وأن تتماهى مع الحضارة الأوربية فى كل مكوناتها . حلوها ومرها ، خيرها وشرها . ما يحب منها وما يكره، ما يحمد منها وما يعاب !

فنحن مصريون وطنيون لكننا فى الحضارة أوربيون !.

أما مسألة الندية الحضارية بيننا وبين أوربا تلك التى أشار إليها طه حسين فلقد بدت أكذوبة، عندما أعلن هو أننا ملزمون وليس فقط ملتزمون بتبنى النموذج الحضارى الأوربى بمقتضى معاهدة الاستقلال.

هكذا- وعلى هذا النحو- ظلت دعوة طه حسين إلى «التغريب الحضاري»- في حقبة الثلاثينيات - «نتوءا شاذا» شاهدا على أن التطور الفكري الحاسم للرجل لم يكتمل بعد - حتى ذلك التاريخ -.. وعلى أن هذا التطور الذي شهده فكر الرجل لا يزال حافلا ببعض «المتناقضات»..

ونحن إذا شئنا إيراد النصوص المعبرة - في «إيجاز.. دقيق»- عن هذه الحقيقة-، فإننا نستطيع أن نقدم ذلك في عدد من النصوص التي نسوقها في عدد من النقاط:

١- يقطع طه حسين بأن عقلنا الحضاري والثقافي والسياسي هو عقل يوناني التكوين، فيقول:

«إن عقلنا يوناني التكوين.. لأنه - كالعقل الأوروبي- مرده إلى عناصر ثلاثة:

أ- حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

ب- وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه.

ج- المسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان.[٩٠]

---

(٩٠) طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] ج١ ص٢٩.

وكما لم يغير الإنجيل- عندما تنصرت أوربا- من الطابع اليوناني للعقل الأوربي، فكذلك القرآن لم يغير من الطابع اليوناني للعقل الشرقي، لأن القرآن «إنما جاء متمما ومصدقا لما في الإنجيل».[91]

٢- ولقد عمم طه حسين هذا الادعاء على مجمل التاريخ- القديم منه والوسيط والحديث- مساويا بين الإسلام والمسيحية.. وبين القرآن والإنجيل- فقال:

«كان العقل المصري- إذن- إلى أيام الاسكندر [٣٥٦- ٣٢٣ق.م] مؤثرا في العقل اليوناني متأثرا به، مشاركا في كثير من خصاله، إن لم يشاركه خصاله كلها.. وجاء الإسلام، وانتشر في أقطار الأرض، وتلقته مصر لقاء حسنا، وأسرعت إليه إسراعا شديدا، فاتخذته لها دينا واتخذت لغته العربية لها لغة فهل أخرجها ذلك عن عقليتها الأولى؟- [العقلية اليونانية] - وهل جعلها ذلك أمة شرقية بالمعنى الذي يفهم من هذه الكلمة الآن؟.

كلا؛ لأن المسيحية التي ظهرت في الشرق قد غمرت أوروبا، واستأثرت بها دون غيرها من الديانات فلم تصبح أوربا شرقية ولم تتغير طبيعة العقل الأوربي. وإذا كان فلاسفة أوربا وقادة الرأي الحديث فيها، يعدون المسيحية عنصرا من عناصر العقل الأوربي، فلست أدري ما الذي يفرق بين المسيحية والإسلام، وكلاهما قد ظهر في الشرق الجغرافي،

---

(٩١) المصدر السابق ج١ ص٢١، ٢٢.

وكلاهما قد نبع من منبع كريم واحد، هبط به الوحي من عند إله واحد، يؤمن به الشرقيون والغربيون على السواء؟.

وكيف يستقيم للعقل السليم والرأي المنصف أن يقرأ الأوربيون الإنجيل فلا يرون به بأسا على العقل الأوربي، ولا يرون أنه ينقل هذا العقل من الغرب إلى الشرق، فإذا قرأوا القرآن رأوه شرقيا خالصا، مع أن القرآن- كما يقول في غير عوج ولا التواء- إنما جاء متمما ومصدقا لما جاء في الإنجيل؟

إذا صح أن المسيحية لم تمسخ العقل الأوربي ولم تخرجه عن يونانيته الموروثة، ولم تجرده من خصائصه التي جاءته من إقليم البحر المتوسط، فيجب أن يصح أن الإسلام لم يغير العقل المصري، أو لم يغير عقل الشعوب التي اعتنقته، والتي كانت متأثرة بهذا البحر المتوسط.[٩٢]

٣- وينطلق طه حسين من هذا التشخيص للتاريخ إلى تطبيقه على الواقع الحالي والمستقبل المنشود، فيقول :

«إن السبيل واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس فيها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقتهم ..في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، ما يحمد منها وما يعاب.. إن الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية، فلم لا يتقبل الحضارة الفرنسية؟ والحضارة الغربية والفرنسية قائمتان

(٩٢) المصدر السابق ج١، ص ١٩، ٢١، ٢٢.



على أساس واحد هو الحضارة اليونانية اللاتينية، وهو في نهاية الأمر الحضارة الكلاسيكية.(٩٣)

٤- وبعد أن سوى طه حسين بين الإسلام والمسيحية.. بين القرآن والإنجيل.. ذهب إلى أن حضارتنا الحديثة لا بد أن تكون علمانية كما هو الحال في الحضارة الأوربية.. فلا شأن للدين ولا للغة في الدولة والوطن!.. فقال:

«من المحقق أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ، عهد بعيد، إلى أن وحدة الدين ووحدة اللغة- لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية، ولا قواما لتكوين الدول.. ولقد فطن المسلمون منذ عهد بعيد، إلى أصل من أصول الحياة الحديثة، وهو أن السياسة شيء والدين شيء آخر، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية-، قبل أن يقوما على أي شيء آخر .. ولقد تخففت أوربا من أعباء القرون الوسطى، وأقامت سياستها على المنافع الزمانية، لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس».(٩٤)

٥- وفي سبيل التماهي مع النموذج الحضاري الغربي، يمعن طه حسين في تجاهل الفروق بين حضارتنا العربية الإسلامية وبين الحضارة الغربية.. فلقد قامت النهضة الأوربية على العلم الحديث، الذي تناقض تناقضا شديدا مع اللاهوت الكنسي

(٩٣) المصدر السابق ج١ ص٤٥، ٣٦.
(٩٤) المصدر السابق ج١، ص١٦، ١٧، ١٨.

والكهانة الكنسية، وذلك على عكس العلاقة بين الإسلام والعلم التي جسدتها كلمات الإمام مالك بن أنس [٩٣- ١٧٩هـ ٧١٢- ٧٥٩م] التي قال فيها: «إن ديننا هذا علم، وعلمنا هذا دين».. وهي الحقيقة التي جعلت الفلسفة تتدين في حضارتنا الإسلامية، كما جعلت الدين يتفلسف.. والتي جعلت علماء الطبيعة هم الأكثر خشية لله.. والتي جعلت هذه الحضارة تبدع المنهج التجريبي، الذي راجع المسلمون به نظريات اليونان وتطورات اليونانيين.. وعلى حين طوت المسيحية- في أوربا- صفحة التراث اليوناني - العلمي والفلسفي - فإن الحضارة الإسلامية هي التي أحيت هذه المواريث مع غيرها من مواريث الحضارات القديمة .. كما شهد علماء الغرب بالاتساق بين القرآن والعلم، وذلك على عكس النصوص الدينية الغربية عندما عرضت على حقائق العلوم.

تجاهل طه حسين كل ذلك، وجازف فذهب إلى المساواة بين حضارتنا الإسلامية وبين الحضارة الغربية في هذا المقام وبالرغم من إجلاله للإمام محمد عبده، الذي «هز العالم الإسلامي بأسره، وأيقظ العقل الشرقي، وعلم الشرقيين أن يحبوا حرية الفكر، وأتاح لكثيرين من المسلمين أن يتطلعوا بأمل راسخ إلى يوم يتحقق فيه التوفيق بين العلم والدين، إلا أن طه حسين قطع باستحالة التوفيق بين الإسلام والعلم، وزعم أن شعوب الشرق- مثلها مثل الشعوب الغربية- قد أصبحت تهرول نحو النموذج الحضاري الغربي، غير عابئة بما لديها من الدين !..



ذهب طه حسين هذا المذهب فقال:

«... ولكن العالم الإسلامي قد أصابه التغير منذ عهد محمد عبده ولم يعد محمد عبده مواكبا للعصر.. لقد صارت كل أفكار محمد عبده بشأن العلم والدين بالية، فهي ليست بالأفكار التي مضى عليها زمن طويل، ولكنها لم تعد تتواءم مع انطلاق الشرقيين إلى الحرية الكبرى وقليل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التي حصلوها، وهم يندفعون بابتهاج نحو الحضارة الغربية، ويتخذونها مثلا أعلى.. يضاف إلى ذلك، أن مذهب محمد عبده، في حد ذاته لم يكن صالحا للبقاء، فقد كان يعتمد على تفسير النصوص للتوفيق بين عبارات القرآن ذاتها وحقائق العلم كما نعرفها اليوم.. لقد صار المتمسكون بآراء محمد عبده وقاسم أمين [١٢٨٠-١٣٢٦هـ ١٨٦٣-١٩٠٨م] يعدون محافظين، بل ويدرجون أحيانا بين المتخلفين». (٩٥)

هكذا تحدث طه حسين..

وليت الرجل قد عاش إلى مطالع الألفية الثالثة، ليرى الواقع الحضاري الذي يشهد على عكس تصوراته هذه.. حيث تقبل قطاعات كبيرة من الشعوب الأوربية «بابتهاج» على الإسلام، دين الإيمان العقلاني والعقلانية المؤمنة.. دين الغيب والعلم والشهادة.. حتى ليجزع بابا الفاتيكان السابق «بنديكتوس السادس عشر» معلنا خوفه من أن تصبح أوربا جزءًا من دار

---

(٩٥) طه حسين [من الشاطئ الآخر] ص٣٦، ٣٧، ٦٢.

الإسلام في القرن الحادي والعشرين» ![٩٦].. كما فزع أسلافه من قساوسة الكاثوليكية- بالأندلس- من إقبال أهل ملته على الإسلام ولغة القرآن وآداب الحضارة الإسلامية!.

٦- ويمعن طه حسين في هذا الطريق، حتى إنه لا يرى التماهي في الحضارة الغربية مجرد «اختيار طبيعي» وإنما يراه» التزاما» .. بل و«إلزاما» غربيا لنا بالسير في هذا الطريق، فيقول:

«لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع.. ولو أننا هممنا أن نعود أدراجنا، ونحيي النظم العتيقة، لما وجدنا إلى ذلك سبيلا، ولوجدنا أمامنا عقابا لا تجاز ولا تذلل، عقابا نقيمها نحن، لأننا حراص على التقدم والرقي، وعقابا تقيمها أوربا، لأننا عاهدناها أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة.. التزمنا هذا كله أمام أوربا. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال- ١٩٣٦م - ومعاهدة إلغاء الامتيازات ١٩٣٨م إلا التزاما صريحا وقاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع؟»[٩٧] ورحم الله طه حسين- وهو رمز من رموز الوطنية المصرية- الذي دفعه العشق للنموذج الحضاري الغربي إلى أن يكتب هذا الكلام الذي يدعو لتكريس التبعية للغرب.. يكتبه بمناسبة عقد

---

(٩٦) [بلا جذور. الغرب. النسبية. المسيحية. الإسلام] طبعة نيويورك ٢٠٠٦م. وانظر كتابنا [الفاتيكان والإسلام] ص٣١، ٣٢. طبعة مكتبة وهبة- القاهرة ٢٠١١م.

(٩٧) [مستقبل الثقافة في مصر] ج١ ص٢٩، ٤٥، ٣٦، ٣٧.

بلاده معاهدة «الاستقلال»!! كما دفع هذا العشق للغرب كثيرين من المتعصبين لطه حسين للاحتفال- مع فرنسا- لمدة عامين - ١٩٩٨م - بمرور قرنين على حملة بونابرت على مصر- ١٧٩٨م- فاحتفلوا بالاحتلال، على حين يحتفل الوطنيون - في كل شعوب العالم «بالاستقلال»-لا «بالاحتلال»! هكذا تحدث طه حسين - في كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] - متجاهلا الكثير من الحقائق الصلبة والعنيدة، التي تقول:

أ- إنه لم تكن هناك مشاركة في الخصال بين عقلنا المصري - والشرقي- وبين العقل اليوناني في حقبة الغزوة التي قادها الإسكندر الأكبر - في القرن الرابع قبل الميلاد- وحتى انتهاء هذه الغزوة بالفتوحات الإسلامية - في القرن السابع للميلاد.. فإبان غزوة القرون العشرة هذه عرف الشرق قهرا حضاريا- في السياسة .. والثقافة .. واللغة. والدين والاجتماع والاقتصاد- .. ولقد أرخت الكنائس الشرقية- ولا زالت تؤرخ - بتلك القرون عنوانا على القهر والاضطهاد وسقوط الشهداء صرعى لهذا القهر الديني والحضارى الذي مارسه الإغريق والرومان والبيزنطيون ضد حضارة الشرق والهوية الحضارية للشرقيين.

ب- وليس صحيحا ما تصوره طه حسين من المماثلة بين الإسلام والمسيحية .. بين القرآن والإنجيل، في انعدام التأثير والتغيير للعقل الحضاري.. فالنصرانية عندما دخلت الإمبراطورية الرومانية قد لبست لبوس الحضارة الرومانية، وطوعت نفسها لثوابت الرومان .. حتى لقد أصاب الفيلسوف

المعتزلي القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني [٤١٥هـ ١٠٢٤م] كبد الحقيقة، عندما قال: «إن النصرانية عندما دخلت روما لم تتنصر روما، ولكن النصرانية هي التي تروّمت»!..

وعلى العكس من ذلك كان انتشار الإسلام في الشرق.. فلأنه - على عكس المسيحية- دين ودولة، قد أقام حضارة غيرت كل ميادين الحياة في الشرق، حتى لقد بلغت تأثيراتها قطاعات من فلسفة اللاهوت عند النصارى واليهود.. وذلك فضلا عن شئون الأسرة وعن اللغة والثقافة ومنظومة القيم.. بل لقد تحدث بعض فلاسفة الغرب عن الفتوحات الإسلامية - التي حررت أوطان الشرق وعقول شعوبه من الغزوة الإغريقية- فقالوا- بلسان المؤرخ «كريستوفر داوسون» [١٨٦٧- ١٩٠٠م]- تلك العبارة الجامعة: «لقد كان محمد هو إجابة الشرق على تحدي الإسكندر. فقد أسس الدولة الكبرى التي أصبح لها ثقافتها الخاصة وحضارتها المتميزة في مواجهة الهيلينستية بوجه عام»!

ج- بل لقد كان طه حسين نفسه أبرز الشهود على أن مقولاته هذه إنما هي لون من ألوان الغلو في التغريب، والتماهي في التبعية للنموذج الحضاري الغربي، فالرجل كان يعيد طبع جميع كتبه إلا كتاب [مستقبل الثقافة في مصر]! وعندما سئل عن السر في ذلك- أثناء حوار معه نشرته صحيفة [الأهرام]- أول مارس ١٩٧١م- أي قبل وفاته بعامين قال:

«ده كتب ١٩٣٦م.. قدم قوي، عاوز يتجدد.. ويجب أن أعود إليه، وأصلح فيه بعض حاجات- وأضيف» أي أنه

اعتبر هذا الكتاب بمثابة «جملة معترضة» في حياته الفكرية، واجبة الحذف من سياق تطوره الفكري- لا يعاد طبعه إلا بعد المراجعة والإصلاح والحذف والإضافات.

كما كان إياب طه حسين الفكري، الذي تصاعدت وتيرته، وانجلت معالمه بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م الشاهد الأكبر على تجاوز طه حسين لما جاء في هذا الكتاب عن وحدة الحضارة، والتكوين اليوناني للعقل الشرقي، وانعدام التأثير الإسلامي في التمايز بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية.

● وإذا كنا قد اكتفينا في الرد على كتاب طه حسين [في الشعر الجاهلي]- وهو قمة استفزازه لعقائد المسلمين ومقدساتهم- بقرار النيابة العامة التي حققت معه- وآثرنا عدم الإطالة باستعراض الردود الكثيرة التي نقض بها كوكبة من علماء الإسلام ما جاء فيه.. فإننا نكتفي في نقد ما جاء بكتاب [مستقبل الثقافة في مصر] عند صدوره- بما كتبه الأستاذ سيد قطب [١٣٢٤- ١٣٨٦هـ ١٩٠٦- ١٩٦٦] ١٩٣٩م.(٩٨)

ولقد قسم سيد قطب ما جاء بكتاب طه حسين إلى قسمين:

---

(٩٨) لقد نشر سيد قطب هذه الدراسة تحت عنوان «نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر» لـ «طه حسين» بصحيفة دار العلوم- العدد الرابع - أبريل ١٩٣٩م ثم أعيد نشرها بذات الصحيفة - عدد رجب ١٤٢٢هـ أكتوبر ٢٠٠١م. ولقد نشرناها بكتابنا [الانتماء الحضاري للغرب أم الإسلام] ص٨٧- ١٥٩- طبعة نهضة مصر- القاهرة ٢٠٠٨م.

أ- مباحث معقدة، تتعلق بـ:

- مصر: شرقية أم غربية؟.
- والإسلام والمسيحية: وأثرهما في أمم البحر الأبيض.
- ومصر والحضارة الأوربية الحديثة.
- وروحانية الشرق ومادية الغرب.

وفي هذا القسم تأتي قضايا الانتماء الحضاري، موضوع الخلاف.

ب- أما القسم الثاني من الكتاب، فهو المتعلق بموقف الدولة من التعليم العام- وهو أقرب إلى «الفروع» التي يقل ويهون فيها الخلاف ويكثر فيها الاتفاق.

لذلك، كان وقوفنا هنا- في رد سيد قطب- عند رأيه في القضايا المعقدة التي جاءت في هذا الكتاب نجعله ملحقا بهذا الكتاب، مع قرار النيابة حول كتاب[في الشعر الجاهلي].



-٤-

مرحلة الإياب والانتصار الحاسم للعروبة والإسلام (١٩٥٢-١٩٦٠م)

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م كان طه حسين في شمال إيطاليا يستعد لحضور مؤتمر اليونسكو- بالبندقية- في سبتمبر ١٩٥٢م «وعندما تلقى مكالمة هاتفية من سفارة مصر في روما تعلمه أن الثورة قد تمت، كان من الدهشة بحيث سقط مغشيا عليه»(٩٩)- فلما أفاق، هتف بزوجته منفعلا وفرحا: «قامت الثورة في مصر.. ثورة ضد الملك».. وكتب عن الثورة في [الأهرام] [والبلاغ] - مطلقا عليها اسم «الثورة» قبل أن تشيع هذه التسمية لحركة الجيش..

- ولقد رحب بالإصلاح الزراعي- في سبتمبر ١٩٥٢م معتبرا أنه يحقق ما كان يسعى إليه هو وأمثاله من العمل على إنصاف المحرومين.. وكان داعيا للنظام الجمهوري بدلا من الملكي.. كما دعا في- ١٩٥٣م - إلى إعطاء المصريين - قبل الأجانب المجال في الاستثمار بالمشاريع الاقتصادية.. ودعا قادة الثورة في ١٠ مايو ١٩٥٣م- «إلى التفاوض مع الإنجليز أو الجهاد ضدهم- فلقد أقسمنا فيما بيننا وبين الله على أننا لن نخدع مرة أخرى كما خدعنا من قبل بهذا الحديث المعاد، حديث المفاوضات».

---

(٩٩) [معك] ص٢٠٧.

- ولم تنظر الثورة إلى طه حسين كحزبي، وإنما كمفكر سبق ودعا إلى العدالة الاجتماعية- في [المعذبون في الأرض]- وإلى مجانية التعليم لأبناء الشعب.
- وبعد إلغاء الثورة - في ١٣ يناير ١٩٥٣م دستور ١٩٢٣م اختير طه حسين عضوا في لجنة الخمسين التي عهد إليها وضع دستور عصر الثورة.. وهي اللجنة التي رأسها الدكتور عبد الرزاق السنهوري [١٣١٣- ١٣٩١هـ ١٨٩٥- ١٩٧١م].
- وفي ٧ ديسمبر ١٩٥٣م أصدرت الثورة صحيفة [الجمهورية] - لسان حال للثورة، وأصبح طه حسين من أبرز كتابها.. ولقد رأس تحريرها- ضمن ستة من الكتاب معه- في أول أبريل ١٩٦٠م. وظل يكتب بها أحد عشر عاما.
- وكان يلح على قادة الثورة الاستعانة بصفوة المفكرين ليكونوا إلى جوار صانع القرار.. وأصبح بقلمه ولسانه- معبرا عن توجهات الثورة في العروبة.. وعدم الانحياز.. ومؤتمر باندونج ١٩٥٥م.. وضد الأحلاف العسكرية الاستعمارية.. ومن أجل تنويع مصادر التسلح وكسر احتكار السلاح- وضد الاستعمار الغربي و«لعبته إسرائيل» التي أقامها على حدودنا .. كما دعم بشدة مناصرة مصر لحركات التحرر الوطني، وخاصة في مراكش وتونس والجزائر، واصفا المستعمرين الفرنسيين الذين يحاربون ثوار الجزائر بأنهم «اللصوص الذين يسفكون دماء الجزائريين».. وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦م ردَّ طه حسين لفرنسا وسام «جوقة الشرف» الذي سبق لفرنسا أن منحته إياه.

• وكانت ميوله مع الديمقراطية، والنظام البرلماني، الذي بلوره دستور١٩٥٤م- الذي لم تطبقه الثورة- وليس مع دستور١٩٥٦م .

• ولم يكتب شيئا عن كتاب [فلسفة الثورة] الذي صدر باسم جمال عبد الناصر [١٣٣٦-١٣٩٠-١٩١٨-١٩٧٠م].. ولا عن المبادئ الستة للثورة.. ولا عن التنظيمات السياسية التي أقامتها الثورة -هيئة التحرير.. والاتحاد القومي-..ولقد وصف «ميثاق العمل الوطني»-١٩٦٢م بأنه «بحث رائع عميق»!.. لكنه تساءل هل هو ميثاق وطني أم كتاب مفصل؟!.. وأشار إلى ما بين الاشتراكية العلمية «التي تحدث عنها الميثاق وبين كتاب [رأس المال] لكارل ماركس[١٨١٧-١٨٨٣م] من شبه!.. كما انتقد ما جاء في الميثاق من موقف غير منصف لدور المفكرين والمثقفين بين ثورتي ١٩١٩م و١٩٥٢م..

• ومن موقعه مع ثورة يوليو- التي سعت لقيادة تيار الوحدة العربية والقومية العربية.. والتي تحدثت عن الدائرة الإسلامية وأقامت «المؤتمر الإسلامي» وناصرت حركات التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا- وأغلبها بلاد إسلامية-.. برزت تحولات فكر طه حسين أكثر فأكثر نحو العروبة والإسلام..

١- حاكمية القرآن الكريم:

في ١٩٥٣م.. وإبان مداولات لجنة الخمسين لوضع الدستور الجديد.. وفي الجلسة السابعة للجنة الحريات

والحقوق والواجبات العامة، رد الدكتور طه حسين على الدكتور عبد الرحمن بدوي [١٣٣٥- ١٤٢٣هـ١٩١٧- ٢٠٠٢م] الذي دعا إلى جعل المرأة مساوية للرجل في كل شيء بصرف النظر عن أحكام الشريعة الإسلامية.. فأعلن ما يمكن أن نسميه «ضرورة حاكمية القرآن الكريم والنصوص الدينية على الدستور والقوانين» فقال:

«إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج، عند وضع الدستور على ما أمر به الإسلام. فلا أظن مثلا أننا سننص على أن تأخذ المرأة في الميراث نصيبا كنصيب الرجل، فلن يحدث هذا بالطبع..

ولا بد لنا من أن نحتاط، فنقول: إنه ليس هناك أي مقتض يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن.. أريد أن أقول: إنه إذا وجد نص ديني صريح، إسلاميا كان أو مسيحيا، فالحكمة والواجب يقتضيان ألا نعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس في شعورهم، ولا في ضمائرهم، ولا في دينهم..

وما دمنا قلنا إن حرية الأديان والعقائد مطلقة، فلابد أن تحترم الأديان جملة، ولا يكون الإيمان إيمانا ببعض الكتاب وكفرا ببعضه الآخر.. فإذا احترمت الدولة الإسلام فلابد أن تحترمه جملة وتفصيلا».(١٠٠)

(١٠٠) [محضر اجتماع لجنة الحريات والحقوق والواجبات العامة]- الجلسة السابعة- ٢٤محرم ١٣٧٢هـ ٣ أكتوبر ١٩٥٣م- ص٨١، ١٢١- طبعة مطابع وزارة الإرشاد القومي - القاهرة- بدون تاريخ.



٢- من الفرعونية إلى العروبة التى صاغها الإسلام:

وعلى درب التطور الفكري - الذي بلغ حد الانقلاب الكامل- أعلن طه حسين انحيازه إلى عروبة مصر وإلى القومية العربية، التي صاغها الإسلام منذ أن ظهر الإسلام.. معتبرا رسول الله ﷺ الأب الحقيقي للقومية العربية. أعلن طه حسين ذلك، بعد أن كان في الثلاثينيات متمترسا في خندق الفرعونية- فرعونية مصر والمصريين، ورافضا العروبة القومية والوحدة العربية.. وحتى الاتحاد العربي!.

فبعد أن كتب- في مجلة [الهلال]- عدد أبريل ١٩٣١م- يقول:

«إن مصر اليوم هي مصر بالأمس، أي مصر الفراعنة، والمصري فرعوني، قبل أن يكون عربيا، فلا تطلبوا من مصر أن تغير فرعونيتها. وإن مصر لن تدخل في وحدة عربية، حتى ولا اتحاد عربي.. وهي ليست مستعدة للمساهمة في الوحدة العربية أو القومية العربية ومع أن الدين العربي واللغة العربية مقومان أساسيان للحياة المصرية الحديثة- فإن الدين لا يصلح أن يتخذ أساسا للوحدة».[١٠١]

بعد أن كان هذا هو رأي طه حسين بالأمس.. غير هذا الرأي، بل انقلب عليه.. فكتب في مجلة [الهلال]- التي سبق وكتب فيها عن الفرعونية!- عدد يناير ١٩٥٩م- عن أن اللغة العربية، والدين الإسلامي، ورسول هذا الدين ﷺ

---

(١٠١) [تراث طه حسين] ج٢ ص٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٢.

هم أركان العروبة والقومية العربية، وأن الإسلام هو المكون الحقيقي والأول لهذه القومية وهذه الوحدة، بفروعها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية والقانونية وأن القرآن هو قانون هذه القومية والوحدة ففي مقالة تحت عنوان «قوميتنا العربية بين الماضي والحاضر والمستقبل» كتب يقول:

«إن أول توحيد للعقل العربي إنما جاء من ناحية اللغة، هذا اللسان الذي أتاح للغة العربية في العصر الجاهلي أن تكون لغة اجتماعية، وأن تكون لغة تستطيع القبائل- على تباعدها واختلافها وخصوماتها- أن يفهم بعضها البعض، وأن يشعر بعضها بما يشعر به بعضها الآخر. فالمكون الأول في المحاولة لإيجاد وحدة لهذه القبائل العربية إنما هو الأدب، والشعر من الأدب بنوع خاص، لأنه هو الذي سبق إلى الوجود، ولم توجد أخوَة النثر إلا بعد عصور تطاولت كثيرا. والقومية العربية- إذا أردنا أن نعرف متى تكونت بالمعنى الدقيق لكلمة القومية- فينبغي أن نرد هذا إلى ظهور الإسلام. فالمكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع أنواعها وفروعها: الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية أيضا، إنما هو النبي ﷺ هو الذي جاء بالقرآن، ودعا إلى الحق، واجتمع حوله الأقلون من أصحابه. وجعل الأقلون يكثرون شيئا فشيئا حتى كانت الهجرة، وحتى أسس أول مدينة إسلامية، أو بعبارة أدق، أول مدينة عربية منظمة عرفها التاريخ. ولا أذكر اليمن القديمة، لأني لا أكاد أعرف من حضارتها ونظمها شيئا، وإنما المدينة



الأولى التي عرفها التاريخ والتي تكونت فيها النواة الأساسية للقومية العربية هي مدينة «يثرب» بعد أن هاجر النبي إليها مع أصحابه من «قريش». ومن هذه الوحدة الضئيلة الصغيرة في هذه المدينة.. جعل الاتحاد العربي ينمو قليلا قليلا.. ولم ينتقل النبي إلى جوار ربه إلا وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ووجدت قومية عربية منظمة لها قانونها وهو القرآن، ولها نظامها السياسي الذي يقوم على ما دعا إليه القرآن من العدل والإنصاف والمساواة بين الناس، ولها حكامها المنظمون والمنظمون أيضا، الذين لا يستأثرون على أحد ولا يؤثرون أنفسهم بخير، وإنما هم خدم للأمة العربية، ينشرون بينها العدل، ويعلمونها شرائع الدين، ويهيئونها لأداء واجبها الإنساني العظيم.

وبعد أن أتم النبي توحيد الأمة العربية ونهض خلفاؤه من بعده، جعلت هذه القومية العربية تتجاوز الجزيرة العربية إلى الأقطار الأخرى....

وأغرب ما تمتاز به هذه القومية العربية، هو أنها عندما استقرت في هذه البلاد.. لم تكتف بإخضاع الناس للسلطان، لأنها لم تكن تريد أن تمتلك الأرض، ولم تكن تريد أن تخضع الناس بسيطرة سياسية فحسب، وإنما كانت غايتها قبل كل شيء أن تملك القلوب، وأن تسيطر على الضمائر، وأن تدخل في أعماق الوجدان في البلاد التي تفتحها وتستقر فيها، وبشرط أن يكون هذا كله دون إكراه أو عنف.. فالمسلمون لم يفرضوا على بلد من هذه البلاد لغتهم، ولم يفرضوا عليها دينهم، وننظر

في أواخر القرن الثاني، فإذا كل هذه اللغات قد تركت أماكنها من ألسنة الناس وعقولهم وقلوبهم لهذه اللغة العربية... لقد أصبحت لغة السياسة .. ولغة الثقافة والعلم أيضا...

وإذن، هناك قومية عربية جديدة أنشأها الإسلام، لم تكن تأتلف من عنصر عربي خالص، وإنما كانت تأتلف من جميع هذه العناصر.. التي كانت تسكن كل هذه البلاد. فأنشأ الإسلام إذن أمة جديدة، وجعل هذه الأمة عربية: عربية اللغة، عربية التفكير والشعور، عربية الحضارة، عربية العلم والثقافة والأدب...لقد أنشأ الإسلام هذه القومية الجديدة، التي ألغى فيها الفروق بين الأجناس، وألغى فيها أن يكون لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى... وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على قوة اللغة العربية وقوة الطبيعة العربية وقوة هذا الدين الذي كان هو العامل أو المؤثر الأول في انتشار العرب خارج جزيرتهم، ثم في تكوين هذه الأمة العربية الجديدة....

لقد أصبحت هناك أمة عربية جديدة، كونها الإسلام، وكونها دون إكراه أو إرغام أو عنف، فتكونت بهذه الوسيلة وبهذا اليسر.. ثم كونها القرآن آخر الأمر- بعد اللغة والشعر- ثم جعلت تفرض نفسها في غير عنف ولا إكراه على العالم القديم حتى احتلت مكانة الإمبراطورية الرومانية واحتلت مكان الدولة الفارسية. وهي الآن بعد أن عدت عليها الخطوب وبعد أن ألحفت عليها الكوارث.. ظلت، على الرغم من هذا كله، محتفظة بقوميتها محتفظة بلغتها وعقليتها وشعورها



وكل ما يميزها .. لقد انقسمت، وانفصل بعضها عن بعض، ونشأت فيها دول، وبرغم هذا ظلت وستظل واحدة في الشعور وواحدة في التفكير، وواحدة في الآلام، وواحدة في الآمال». [102]

هكذا كتب طه حسين- في ١٩٥٩م - هذه الدراسة، التي لم يراجع فيها- فقط- موقفه القديم من الفرعونية.. وإنما راجع الكثير والكثير مما سبق وذكره - في مرحلته الأولى - عن القومية المصرية المجردة من العروبة والإسلام.. وما كتبه في كتابه [قادة الفكر] ١٩٢٥م .. وما جاء بكتب [الإسلام وأصول الحكم] و[في الشعر الجاهلي] و[مستقبل الثقافة في مصر] .. ذلك أن تحليلا مفصلا لمضمون هذه الدراسة يضع يدنا على التطور الفكري الذي أحرزه طه حسين في الكثير من الميادين.

٣- الرحلة الحجازية .. والفتوحات الربانية:

أما الرحلة الحجازية - التي قام بها طه حسين إلى الحجاز ١٩٥٥م - والتي زار فيها مكة والمدينة -فلقد مثلت قمة الإياب الروحي إلى أحضان الإسلام كانت كما وصفها: تلبية لدعوة آمرة من خارج نفسه ! شعر فيها بعود النفس الغريبة حين تثوب إلى وطنها بعد غربة غريبة طويلة جدا مدركة لما بين الله وبينها من حساب عسير.. وراجية- من الله - أن يجعل من عسره يسرا.

---

(١٠٢) [تراث طه حسين] ج٦ ص٣٢١، ٣٢٦.

- ولقد سئل فيها عن أحب مؤلفاته إليه ؟ .. فقال : - لا أحب منها شيئا ؟ !
- وسئل : ما هو بيت الشعر الذي راقكم ، ورددتموه وحفظتموه لأول وهلة ؟ .. فأجاب - لا أذكر .. إنما الشيء الذي لا شك فيه هو أنني أكثر ما أتلو بيني وبين نفسي آيات من القرآن الكريم . وأنا أكثر ترديدا للقرآن من الشعر .
- فلما سئل عن الدعاء الذي ناجى به ربه - في الحرم- في صمت وخشوع، قال: قلت: لربي سبحانه وتعالى- :«اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت. أنت إلهي لا إله إلا أنت». (١٠٣)
- نعم ! .. لقد مثلت هذه الرحلة الحجازية «الفتوحات الربانية» بالنسبة لتطور طه حسين على درب الإياب للإسلام .. كانت ميلادا جديدا .. وانقلابا كاملا لطه حسين. فبعد مخاض طويل وعسير .. امتد أكثر من عشرين عاما، وشهد تطورا فكريا بطيئا ومتعرجا لفكر طه حسين في اتجاه الخروج من عباءة الانبهار بالنموذج الحضاري الغربي، والاقتراب من النموذج الحضاري

(١٠٣) لقد أوصى طه حسين بكتابة هذا الدعاء النبوي على القبر الذي دفن فيه.



الإسلامي.. جاءت الرحلة الحجازية لطه حسين- في جمادى الثانية ١٣٧٤هـ يناير ١٩٥٥م لتطوي صفحة هذا المخاض الطويل والعسير، والمليء بالمتناقضات، ولتمثل هذه الرحلة ميلادا جديدا لطه حسين الجديد الذي عاد بعقله وقلبه وكل مشاعره وسائر كيانه إلى أحضان الإسلام، رافعا رايات الانتصار للإسلام: الدين .. والقيم .. والحضارة.. والتاريخ.

- لقد خلع الرجل ملابسه، واكتسى بملابس الإحرام، ليؤدي العمرة بالمسجد الحرام.. وسألته صحيفة [البلاد] السعودية عن إحساسه في هذه اللحظات؟.. وعن الدعاء الذي دعا به في المسجد الحرام؟.. فقال: «أوثر أن يترك الجواب على هذين السؤالين لما بين الله وبيني من حساب، وإنه لعسير. أرجو أن يجعل الله من عسره يسرا».

- وعندما انهالت عليه الأسئلة عن انطباعاته الروحية لهذه الرحلة الحجازية؟.. كان جوابه الدائم: «إن أول ما شعرت به وما زلت أشعر به إلى الآن هو هذا الذي يجده الغريب حين يؤوب بعد غيبة طويلة جدا إلى موطن عقله وقلبه وروحه بمعنى عام».

- وعندما سأله [منهل الطلبة]:

- أي مؤلفاتك أحب إليك؟.

قال: «لا أحب منها شيئا»![104]

---

(١٠٤) حسين محمد با فقيه [طه حسين والمثقفون السعوديون] ص٢٠٤، ٢١٥. طبعة دار المؤلف- بيروت ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

فكان ذلك إعلانا صريحا وحاسما عن هذا الميلاد الروحي والعقلي الجديد !..

أما نصوص طه حسن، التي توثق لشهاداته هو على هذا الميلاد الجديد فإننا نسوقها في وثائق هذه الرحلة، كما جاءت في:

١- خطابه التاريخي- بجدة- في الدورة التاسعة للمؤتمر الثقافي لجامعة الدول العربية.

٢- وزيارته للمسجد الحرام - بمكة المكرمة- لأداء العمرة.

٣- وزياراته للمسجد النبوي- بالمدينة المنورة- ولقبر رسول الله ﷺ والمشاهد المقدسة بالمدينة المنورة.

٤- وما صاحب هذه الوقائع من لقاءات مع الصحافة السعودية، ومع الأساتذة المصريين العاملين في تلك البلاد..

٥- والحديث الصحفي الذي أجراه الأستاذ كامل الشناوي- لمجلة [آخر ساعة]- بعد عودة طه حسين للقاهرة- والذي عكس دهشة العارفين بطه حسين «القديم» لهذا الميلاد الجديد، ولهذا الفتح الرباني الذي تجلى في هذه الرحلة الحجازية.. وهو الحديث الذي نشرته [آخر ساعة] بتاريخ ١٦ فبراير ١٩٥٥م..

- لقد كان طه حسين في مرحلة غربته عن العروبة والإسلام- دائم الإعلان عن أن الدين الإسلامي واللغة العربية لا أثر


لهما ولا علاقة في تكوين الأوطان..

لكنه - في رحلته الحجازية - وفي خطابه بمؤتمر اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية- بجدة- قد طوى هذه الصفحة، وأعلن «أن الإسلام وطن .. بل هو الوطن المقدس، والصانع الأول للمواطن المسلم عبر الزمان والمكان».. لقد قال: «كان الفرنسيون في بعض أوقاتهم يتحدثون عن انتشار ثقافتهم في الأرض، فيقول قائلهم: «إن لكل مثقف وطنين؛ أما أحدهما فوطنه الذي ولد فيه ونشأ، وأما الآخر ففرنسا التى تثقف فيها أو تلقى الثقافة عنها. وكنا نسمع هذا الكلام وكنا نرى فيه شيئا من حق وكثيرا من سرف.

ولكن الذي أريد أن أقوله الآن هو الحق كل الحق، لا نصيب للسرف فيه من قريب أو بعيد، فلكل مسلم وطنان لا يستطيع أحد أن يشك في ذلك شكا قويا أو ضعيفا، وطنه الذي نشأ فيه، وهذا الوطن المقدس الذي أنشأ أمته وكون قلبه وعقله وذوقه وعواطفه جميعا. هذا الوطن المقدس الذي هداه إلى الهدى والذي يسره للخير والذي عرفه نفسه وجعله عضوا صالحا مصلحا في هذا العالم الذي يعيش فيه.. هذا الوطن العزيز الكريم وطن العروبة والإسلام.[١٠٥]

فبفضل الإسلام أولا، وبفضل الطبيعة العربية القومية ثانيا، استطاعت الأمة العربية لأول مرة في تاريخ الإنسانية أن تجعل من العالم القديم كله وحدة في التفكير والعقل والشعور..

---

(١٠٥) المصدر السابق ص١٣٣، ١٣٤.

لقد كلفنا الله مهمة أن نكون أمة هادية مصلحة للإنسان، لا تؤثر نفسها بالخير، ولا تنفرد بالحضارة والسعادة من دون الناس ..

إن في الأرض أمما إسلامية، وإن الإسلام يفرض عليها أن تكون قلوبها عربية علىَ الأقل، لا يفرض عليها أن تجحد أوطانها، ولا أن تجحد لغاتها، ولا أن تجحد خصائصها، ولكنه يفرض عليها ما دامت مسلمة أن تكون قلوبها مسلمة عربية. فأعينوا هذه الأمم المسلمة على أن تعرب قلوبها، وعلى ان تقرأ القرآن وتفهمه وتفقهه وتهتدي بهديه.. واحذروا ان تطغى الحضارات الأجنبية على أمم إسلامية لا تحسن لغة القرآن.. وأن تكون هذه الأمم أعلم بلغات الأوربيين منها بلغة العرب والقرآن.. واعلموا بأن الله لا يأمركم بهذا وحده، وإنما يأمركم بنشر الإسلام في كل مكان ما استطعتم إلى ذلك سبيلا....

«إنني أسعد الناس وأعظمهم غبطة بأن أشعر الآن باني أتحدث في بلاد العرب، في البلاد التي عاش فيها محمد ﷺ وأصحابه، وفي البلاد التي مر عليها وقت كان أهلها يقولون فيه: ما أشد قرب السماء من الأرض. ثم مر عليها وقت، بعد وفاة النبي، كان بعضهم يبكي! لا لأن شخص محمد قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، بل لأن خبر السماء قد انقطع عن هذه البلاد...

.. هذا الوطن العزيز علينا جميعا، الأثير إلى قلوبنا...

.. إن الغرب الأوربي والأمريكي الآن على تفرقه إنما هو

مدين بتفوقه كله وبعلمه كله لهذه الأصول الخصبة الدائمة التي نقلها العرب إلى أوربا في القرون الوسطى، ولا يعني مطلقا أن نتحرج من أن نطالب الأوربيين- وقد طالبتهم كثيرا- بأن يردوا إلى الشرق بعض دينْه عندهم، وأن لا يكونوا ملتوين بما عليهم من الدين، وبأن يشعروا بأن للشرق العربي عليهم جميلا يجب أن يقدروه وأن يشكروه، وأن لا يسرفوا في العزة بالإثم، وأن لا يبغوا على الذين أحسنوا عليهم والذين علموهم كيف يكون الإحسان». (١٠٦)

- ولقد احتفل الأساتذة المصريون العاملون بالمملكة العربية السعودية بطه حسين، وتباروا في الترحيب به – شعرا ونثرا – وكان الشيخ محمد متولي الشعراوي أحد الذين حيوا طه حسين بقصيدة عصماء.. وفي كلمة طه حسين بهذا الحفل- بجدة- تحدث عن أن الوطن المصري ليس الإقليم القطري وإنما هو الممتد إلى حيث العروبة والإسلام فقال – ضمن ما قال-: «إن وطن المصريين لا تحده حدوده الجغرافية، وإنما تحده الحدود التي تحد بلاد العرب في جميع أقطار الأرض .. ويجب أن يقدر المصريون أنهم في هذه البلاد ليسوا رسل وطنهم وحده ولكنهم قبل كل شيء وفوق كل شيء رسل الإسلام فهذه أرض الله، فيها أشرق نور الله ومنها انبعث هذا النور فهدى أوطاننا جميعا إلى الحق، وسلك بها سبل الخير.

(١٠٦) المصدر السابق. ص ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٧، ١٣٦، ١٣٧. وتاريخ هذا الخطاب ٢٤ جمادى الأولى ١٣٧٤هـ.

● وفي حفل مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر السعودية، تحدث طه حسين عن ولادته الجديدة - في هذه الرحلة الحجازية وعن هذا الوطن الذي صاغه الإسلام، فقال:

«حين أقبلنا لزيارة هذا البلد الكريم، أحس كل منا أنه يعود من غربته الغريبة إلى وطنه العزيز - فنحن ضيوف في كل مكان من بلاد الأرض.. إلا هذا المكان، فنحن فيه أبناء الوطن .. إنه ليس وطنكم وحدكم، وإنما هو للمسلمين جميعا.. فوطننا الطبيعي هو وطنكم .. إنه الموطن الذي أشرق منه نور الإسلام، ونشأت فيه الحضارة العربية الإسلامية. وما أعرف قطرًا من أقطار الأرض أثر في عقول الناس وقلوبهم وأذواقهم كما أثرت هذه البلاد، وكما أثر الحجاز فيها بنوع خاص..

● وعندما سئل عن شعوره عندما قدم هذه البلاد لأول مرة؟ .. قال:

«إن أردت التعبير الدقيق فقد كان شعوري شعور الغريب حين يؤوب إلى وطنه. وقد آمنت أن الوطن الصحيح لعقلي ونفسي وقلبي إنما هو هذا الوطن..

● ولقد سألته صحيفة [البلاد] السعودية ذات السؤال .. فأجاب ذات الجواب:

«إن أول ما شعرت به وما زلت أشعر به إلى الآن هو هذا الذي يجده الغريب حين يؤوب بعد غيبة طويلة جدا إلى موطن عقله وقلبه وروحه بمعنى عام».

● ولقد سأله أحد الطلبة:

ما هو بيت الشعر الذي راقكم ورددتموه وحفظتموه لأول وهلة؟

فأجاب: «لا أذكر. إنما الشيء الذي لا شك فيه هو أنني أكثر ما أتلو بيني وبين نفسي آيات من القرآن الكريم. وأنا أكثر ترديدا للقرآن من الشعر».(١٠٧)

● فسألته صحيفة [البلاد] السعودية:

ما هو إحساسكم عندما تجردتم في ملابس الإحرام؟ وبماذا دعوتم الله في المسجد الحرام؟.

فأجاب: «أوثر أن يترك الجواب على هذين السؤالين لما بين الله وبيني من حساب، وإنه لعسير. أرجو أن يجعل الله من عسره يسرًا».

فلما سألته الصحيفة:

- ما هي الروافد الثقافية التي تنصحون بالاتجاه إليها في نهضتنا الحديثة؟

- أجاب: «أن تفتح القلوب والعقول على مصاريعها للعلم والفن والثقافة مهما تكن مصادرها، وأن نبذل أقصى ما نستطيع لنحمي قلوبنا وعقولنا من أن تستأثر بها ثقافة غربية بعينها».

● ولقد سأله مندوب مجلة [المنهل]:

- هذه أولى المرات التي قدمتم فيها إلى هذه البلاد، فما

---

(١٠٧) المصدر السابق ص١٥٢.

هو شعوركم نحوها؟ وماذا راقكم فيها؟ وماذا لمستم من مظاهر تطورها؟

فأجاب: «أما شعوري فشعور المحب المؤمن. أما رأيي فهو رأي كل مسلم يقدّر مهد الإسلام حق قدره، ويتمنى أن تكون مشرق النور في مستقبل أيامها كما كانت مشرق النور حين اختصها الله بكرامته فابتعث فيها محمدا ﷺ شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وأنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان».

• فلما سأله [منهل الطلبة]:

- أي مؤلفاتك أحب إليك؟

أجاب: «لا أحب منها شيئًا»!![١٠٨]

* * *

• ولقد أحرم طه حسين- في جدة- وركب السيارة قاصدا مكة لأداء العمرة.. وأوعز إلى الشيخ أمين الخولي [١٣١٣- ١٣٨٥هـ/ ١٨٩٦- ١٩٦٦م]- رفيقه في هذه الرحلة الحجازية، ورئيس الوفد المصري بالمؤتمر- أوعز إليه بإيقاف السيارة لحظة وصولها إلى الحديبية. وما إن بلغت السيارة ذلك المكان وتوقفت، حتى ترجل طه حسين، وقبض من تراب الحديبية قبضةً فشمها، ثم تمتم ودموعه تنساب على التراب قائلًا: والله إني لأشم رائحة محمد ﷺ

(١٠٨) المصدر السابق ص ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٨، ١٦٠، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٥.

في هذا التراب الطاهر . وهدأ مرافقُه من روعه على مدى نصف ساعة من الراحة .

ثم استمر الركب حتى دخل الحرم من باب السلام، والدكتور لا يكاد يخفي زلزلة إيمانه عن رفيقه. وتوجها إلى الكعبة، فتسلم الحجر وقبَّله باكيًا، واستمر يطوف في خشوع ضارع وبكاء خفيٍ حتى أتم عمرته، وقد أخذ منه الإرهاق النفسي أكثر من البدني كل مأخذ .

وذكر أمين الخولي أن «طه حسين حين استلم الحجر الأسود ظل يتنهد ويبكي، وقبَّل الحجر حتى وقفت مواكب المعتمرين انتظارا لأن يغادر هذا الأديب الكبير المكفوف مكانه، ولكنه أطال البكاء والتنهُّد والتقبيل، ونسي نفسه، فتركوه في مكانه، وأجهشوا معه في البكاء والتنهيد» ![109]

● وبعد أداء العمرة طلب طه حسين ترتيب السفر إلى المدينة المنورة.. لكن الطريق البري كان مغلقا بسبب السيول التي حدثت ذلك العام- وطه حسين لا يركب الطائرات أبدًا !.. لكنه صمم على السفر إلى المدينة- وإن بالطائرة وبطائرة أبعد ما تكون عن الراحة والأمان !..

ولقد وصل إلى المدينة- على طائرة خاصة- مع الوفد المرافق له يوم الأربعاء ٢ جمادى الآخرة ١٣٧٤هـ ٢٦ يناير ١٩٥٥م.. واتجه من المطار إلى المسجد النبوي الشريف، وبعد صلاة في الروضة المطهرة، وزيارة قبر المصطفى ﷺ

(١٠٩) المصدر السابق ص٤٩ ، ٥٠ .

تفقد عمارة المسجد والتوسعة الجديدة له، وزار المآثر الخالدة.. ولقد وصف هذا المشهد، فقال:

«عندما دخلت المسجد النبوي شعرت بجلال الموقف، وطغى عليَّ الشعور بعظمة هذا المسجد الذي كان مهبط الرسالة، ومصدرا لانتشار الإسلام الحنيف.. كنت واقفا أمام القبر الشريف مأخوذا بمعان روحية عالية. كنت أستعرض حياة رسول الله ﷺ وهو يصلي بالناس، وهو يخطب فيهم ويعظهم ويعلمهم دينهم، وهو يخطو بين بيته ومنبره ليصلي في روضة من رياض الجنة. أستعرض حياة هذا المسجد عندما شع منه نور الإسلام فعم الكون. وعندما كان ﷺ يجهز جيوش المسلمين لإعلاء دين الله ولتكون كلمة الله هي العليا، وكان يقود بعض هذه الجيوش بنفسه، وكان يؤمّر على بعضها أحد أصحابه.

تذكرت وأنا أقف في المواجهة صاحبيه أبا بكر وعمر وهما مضطجعان بجانبه، وكانا من أعظم أنصاره ومؤيديه. كنت مأخوذا بهذه المعاني الروحية العالية بكل جوارحي وقلبي».

• ويقول عثمان حافظ [١٣٢٨- ١٤١٣هـ ١٩٠٩-١٩٩٣م]- مؤسس صحيفة [المدينة]- وكان مرافقا له:

«أذكره وكأنه أمامي الآن وهو يتسلق سقايل عمارة المسجد النبوي ليصعد إلى سطح المسجد، ويتفقد عمارة التوسعة، وقد أمسك بيد معالي الشيخ محمد صالح قزاز- مدير مكتب عمارة التوسعة- وكنت وأخي السيد علي حافظ وابني يعرب

معهم على السقالة». (١١٠)

● وفي مطار المدينة المنورة سألته صحيفة [المدينة] أن يتكلم.. فقال:

«كيف أستطيع الكلام في بلد صاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة والسلام ؟.. إنني أجد نفسي مأخوذا بجلال الموقف وهيبة هذا البلد المقدس وذكرياته العظيمة في تاريخ العالم. ولا أستطيع أن أقول شيئا إلا أنني أحيي صاحب الرسالة العظيم ثم المدينة وأهلها».

فلما ألح عليه أصحاب الجريدة في الكلام ليتخذوا من كلمته حديثا لجريدتهم، قال:

«إن ما شاهدته في المدينة من المآثر الخالدة ملك عليَّ قلبي وعقلي حتى أصبحت لا أجد سبيلا للكلام الآن، ولا بد لي من زمن ومهلة لتعود نفسي إليَّ حتى أستطيع الكلام. وما كان لي أن أرفع صوتي في المدينة وقد قال الله تعالى:

﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾

(الحجرات: ٢)»

● فسألاه:

- هل زرت، يا دكتور، ميدان معركة أُحُد وميدان معركة الأحزاب ومسجد قباء؟.. فقال:

(١١٠) المصدر السابق ص٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦١.

«نعم، زرت قبر حمزة- رضي الله عنه- وتذكرت المعركة، وتذكرت قول النبي ﷺ عندما شاهد حمزة وهو ممثَّل به: «لولا أن تجزع صفية وتكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطيور».

وزرت مساجد معركة الخندق، وتذكرت قول النبي للمهاجرين والأنصار: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة» وقوله لعمار: «ويح عمار، تقتله الفئة الباغية».

وصليت الظهر في المسجد النبوي، وشعرت بسمو روحي، ووددتُّ أن لا أبرح المسجد، أتابع صلاة الظهر بصلاة العصر، فلا أريد غذاءً ولا طعامًا ولا شرابًا. ولكن معي رفاقي يريدون السفر عاجلًا».(١١١)

* * *

● وبعد العودة من الرحلة الحجازية.. أجرى الشاعر والكاتب كامل الشناوي مع طه حسين حديثًا صحفيًا، نشرته مجلة [آخر ساعة] في ١٦ فبراير سنة ١٩٥٥م بدأه بقوله:

«سألت الدكتور طه غداة وصوله إلى القاهرة:

- كيف كان شعورك وأنت في هذه الأماكن المقدسة؟

فقال: «لقد سألوني هناك مثل هذا السؤال، وقلت لهم: ما بالكم تقحمون أنفسكم بين المرء وربه؟»

(١١١) المصدر السابق ص١٩٣، ١٩٤.



فقلت له: إنني بهذا السؤال لا أقحم نفسي بينك وبين ربك، ولا بينك وبين قلبك، ولكن أحاول أن أقحم معلوماتي عن المفكر الحر الثائر طه حسين. لقد عرفتك لا تبالي ما يقول الناس عنك. وما أكثر ما قالوا. بل ما أكثر ما صنعوا! لقد اتهموك بالكفر، ووصل الأمر إلى النيابة العامة، وخرجتَ من الاتهام بريئًا نقيًا. كان ذلك من ربع قرن أو أكثر، عندما ألفت كتابًا عن الشعر الجاهلي. لقد عرفت الشائعات، فمن حقي إذن أن أعرف الحقائق!

وأطرق الدكتور طه حسين، ومسح جبينه بيده، كأنما يحاول أن ينفض غبار بعض الذكريات، وقال:

لقد سبق أن عشتُ بفكري وقلبي في هذه الأماكن المقدسة زهاء عشرين عاما منذ بدأت أكتب [على هامش السيرة] حتى الآن. ولما زرت مكة والمدينة أحسست أني أعيش بفكري وقلبي وجسدي جميعا، عشت بعقلي الباطن وعقلي الواعي. استعدتُ كل ذكرياتي القديمة، ومنها ما هو من صميم التاريخ، ومنها ما هو من صميم العقيدة، وكانت الذكريات تختلط بواقعي، فتبدو حقائق حينا ورموزًا حينًا آخر، وكان الشعور بها يغمرني، ويملأ جوانب نفسي.

وقلت للدكتور طه: هل أخرجك هذا الشعور عن المألوف؟

فابتسم وقال: على أي حال لم أصل إلى درجة الانجذاب. كنت دائما في كامل وعيي. أخذتني الرهبة والخشية والخشوع كل مأخذ. كانت شخصيتي الواعية تناجي ربها في صدقٍ وصمتٍ وخشوع.

- وسألته: وبماذا ناجيت ربك في صمت وخشوع؟
- فقال: قلتُ له- سبحانه-: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن. أنت الحق ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وأخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت!»
- وقلت للدكتور طه: ومتى حفظت هذا الدعاء؟
- فقال: إني حفظته منذ زمن بعيد، وهو من أصح ما روي من الحديث عن النبي محمد ﷺ.
- قلت: وهل سبق لك أن ناجيت ربك بهذا الدعاء قبل اليوم؟
- فقال: دائما أناجي ربي بهذا الدعاء وبغير هذا الدعاء.
- قلت: هل خاطبت ربك علنًا؟
- فقال: أنا إذا ما خاطبت ربي ناجيته، وقد سبق أن أذعت هذا الدعاء.
- متى؟
- فقال: عام ١٩٥١م.
- أين؟
- فقال: في فلورنسا.
- وباللغة العربية؟

• فقال: أذعت هذا الدعاء باللغة الفرنسية في مؤتمر الحضارة المسيحية، ولم أكد أنتهي من إلقاء هذا الدعاء حتى دوت قاعة المؤتمر بتصفيق شديد، وجاءتني سيدة مسيحية وطلبت نسخة من هذا الدعاء فأعطيتها نسخة، وقالت لي وهي تبكي: خذ دموعي وإعجابي وبلغهما للإسلام الذي أحبه كثيرا، فقلت لها: لا داعي للدموع، إعجابك يكفي. ويومها أثار هذا الدعاء الشوق في قلبي أنا لزيارة مدينة الرسول.

• فسأله كامل الشناوي: علمت أنكم سافرتم للمدينة المنورة في طائرة صغيرة خطرة، مع أنكم لا تركبون الطائرات أبدًا، وسبق أن رفضتم دعوات هامة جدا لأمريكا وروسيا والهند لأن تلبيتها كانت تستلزم ركوب الطيارة، ولم تلبوا حتى دعوات ابنتكم وصهركم لزيارتهما وهما في أي منصب في السلك الدبلوماسي في أي بلد لهذا السبب.

• فقال الدكتور طه حسين: لم يكن من الممكن أن أتخلف عن هذه الزيارة، ولم تكن هناك طريقة أخرى غير الطيارة، كنت أحس أنه لا بد لي من زيارتها، لولا خوف الغرور لقلت إنها كانت دعوة من خارج نفسي.. دعوة آمرة.

• ويستفهم كامل الشناوي: دعوة آمرة؟

• ويقول طه حسين: دعوة آمرة لا بد أن تُلَبَّى.

لقد قال لي الأستاذ أمين الخولي- في فندق الكندرة بجدة-: إن الطريق البري إلى المدينة مقطوع بسبب السيول الغزيرة التي هطلت هذا العام. ألا تؤجل زيارة المدينة المنورة هذه المرة؟

فقلت له: لن أغفر ذلك لنفسي أبدًا. شوقي إلى هذه الزيارة يتزايد منذ أكثر من سنتين».[١١٢]

هكذا قام طه حسين برحلته الحجازية.. وهكذا كانت الفتوحات الربانية.. لقد ولد الرجل ولادة جديدة.. وعادت نفس الغريب من غربتها الغريبة الطويلة جدا إلى الوطن الذي صاغ العقل والقلب والذوق والشعور.. الوطن المقدس، الصانع للمسلم عبر الزمان والمكان.. الوطن الذي هداه إلى الهدى، والذي يسره للخير، والذي عرَّفه نفسه وجعله عضوا صالحا مصلحا في هذا العالم الذي يعيش فيه.. وطن العروبة والإسلام.

* * *

● ولقد علقت زوجته- المسيحية- على هذه الرحلة الحجازية فقالت:

«كانت فرحة عميقة بالنسبة إليه أن يعيش قليلا في الجزيرة العربية، في أماكن عرفها فكره وقلبه وأحبها حبًا قويًا.. وأعرف كم كان منفعلا عندما كان يقول لي: «حقًا! إن الإسلام دين الصفاء والتسامح»».

ولقد كتب لي من الجزيرة العربية: «تعالي إلى ذراعي، وضعي رأسك على كتفي، ودعي قلبك يصغي إلى قلبي»![١١٣]

* * *

(١١٢) المصدر السابق ص٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٥٥.

(١١٣) [معك] ص١٩٢.

٤- المراجعات الفكرية في [مرآة الإسلام] :

وكما مثلت الرحلة الحجازية «الإياب الروحي» لطه حسين، كان كتابه [مرآة الإسلام] ميدانا للإياب العقلي والفكري، راجع فيه الكثير من آراء طه حسين القديم..

ففي سنة ١٩٥٩م.. أي بعد نحو خمس سنوات من «عودة الغريب إلى وطنه الذي صاغ قلبه وعقله وذوقه وعواطفه جميعًا»، نشر طه حسين كتابه الجامع [مرآة الإسلام] .. وفي هذا الكتاب:

- يكشف طه حسين عن ألوان من إعجاز النظم القرآني، لعله لم يسبق إليها..
- وفيه رفض قاطع للغرور العقلاني الذي طغى على فكره في مرحلة الانبهار بالغرب ومناهج الشك الغربية.
- وفيه رفض للتأويل الباطني وتأويلات التصوف الإشراقي لآيات القرآن الكريم.. فلقد رفض- في هذا الكتاب- تأويل الآيات المتشابهات حتى من قبل الراسخين في العلم؛ إذ لا يعلم تأويله إلا الله..
- وهو- في هذا الكتاب- ناقد للفلسفة والفلاسفة، ولإقحام الفلسفة في الدين، هذا الإقحام الذي قاد «المعتزلة إلى مذهبهم في نفي الصفات، وظنهم أن العقل يستطيع معرفة كل شيء، وحتى معرفة الذات والصفات».
- وهو في هذا الكتاب يكثر من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ قرابة الثمانين مرة..

- وفيه تتميز وتمتاز نظرات طه حسين في القرآن الكريم، فعندما يسوق شواهده في المشركين واليهود والنصارى، يتمنى القارئ لو أن الفرصة قد سنحت لطه حسين كي يفسر القرآن الكريم؛ إذًا لأضيف إلى المكتبة القرآنية تفسير متميز وممتاز.
- وفيه تجلت العلاقة الحميمة بين طه حسين والإسلام مؤسسة على العقل والنقل والوجدان.
- وفيه نقد لأبي العلاء المعري وغروره العقلاني و«شكه السخيف».
- وذلك علاوة على ما فيه من نقد ذاتي لما سبق وأورده طه حسين في كتاب [مستقبل الثقافة في مصر].
- وفي هذا الكتاب تخلص أسلوب طه حسين من التكرار- الذي كان يعيبه عليه كثيرون-.

وإذا أردنا- في إشارات موجزة- أن نضرب بعض الأمثال على ما في هذا الكتاب- [مرآة الإسلام]- من مراجعات فكرية، فإننا نشير- على سبيل المثال- إلى:

أ- ما جاء فيه من نقض لما سبق وذكره طه حسين [في الشعر الجاهلي]، وذلك عند تفسير قوله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ



﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

(البقرة: ١٢٨، ١٢٩)

ففي هذا التفسير يقول طه حسين:

«.. فالله يثبت في هذه الآيات دعاء إبراهيم وإسماعيل أثناء رفعهما القواعد من البيت، أن يجعلهما الله مسلمين له، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يبعث في هذه الأمة رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة.. فإبراهيم إذن هو الذي سمى المؤمنين مسلمين، وهو أبوهم، وقد كان مسلما».[114]

ففي كتاب [في الشعر الجاهلي] كان طه حسين يعتبر هذه العقائد ألوانا من الحيل والأساطير!.

ب- وبعد الانبهار بالفلسفة اليونانية- في [قادة الفكر]- واعتبارها «أشد من الدهر قدرة على البقاء»!.. نقرأ نقده فلاسفة المسلمين الذين ساروا في الغلو العقلاني سيرة الفلسفة اليونانية.. فيقول:

«.. ولم يلبث المسلمون أن عرفوا ألوانا من الثقافات الأجنبية، والثقافة اليونانية خاصة، والفلسفة اليونانية على وجه أخص، فتأثروا بهذا كله واتخذوه وسيلة إلى الدفاع عن دينهم، كما فعل النصارى واليهود. ثم مضوا إلى أبعد من ذلك

---

(١١٤) [مرآة الإسلام] ص٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣. طبعة دار المعارف- القاهرة- سنة ١٩٥٩م.

فآمنوا بالعقل وحكموه في كل شيء، وزعموا أنه وحده مصدر المعرفة، وأنه هو الذي يحسّن ويقبّح من أعمال الناس حسنها وقبيحها، وأنه يستطيع أن يعرف الله، وأن يعرفه بقوته، سواء جاءته الأنبياء الهداة إلى الله أو لم يجيئوا. وقد غرهم إيمانهم بالعقل فدفعهم إلى شطط بعيد، ولم يخطر لهم أن العقل الإنساني ملكة من ملكات الإنسان، وأن هذه الملكة كغيرها من ملكات الإنسان محدودة القوة تستطيع أن تعرف أشياء وتقصر عن معرفة أشياء لم تهيأ لمعرفتها، وهذا هو الذي فتح عليهم أبواب هذا الاختلاف الذي لا ينقضي، وجعلهم فرقًا نيفت على السبعين. لقد تورطوا في أشياء أساغتها عقولهم، ولا تستطيع عقولنا نحن أن تسيغها، ولسنا في حاجة إليها لنحسن الإيمان بالله والعلم بقدرته، وبما وصف نفسه به من الصفات؛ لأننا قد عرفنا أن العقل الإنساني ليس من القوة والنفوذ بحيث ظن فلاسفة اليونان ومن تبعهم من متفلسفي النصارى واليهود والمسلمين» .(١١٥)

ج- وبعد أن كان يقول- [في الشعر الجاهلي]- «إنه من أنصار الجديد الذين خلق الله لهم عقولا تجد من الشك لذة، وفي القلق والاضطراب رضًا»(١١٦) .. أصبح ناقدا للغلو العقلاني عند المعتزلة «فلقد تجاوزت المعتزلة ما ألف

---

(١١٥) المصدر السابق ص٢٧٨، ٢٨٠.
(١١٦) [في الشعر الجاهلي] ص٥.

الصالحون من القصد، فأغرقوا في تحكيم العقل فيما لا يستطيع العقل أن يحكم فيه».[117]

د- وبعد أن عرض سنة ١٩١٤م- في [تجديد ذكرى أبي العلاء]- مذهب المعري الذي لا يؤمن إلا بالعقل.. وإن تردد فيه فتردده إنما يكون بين «العقل» وبين «الشك»!- فقال:

«والواقع أن أبا العلاء لم يتخذ لنظره الفلسفي مذهب أهل السنة، ولا مذهب السوفسطائية وأصحاب الشك، ولا مذهب المعتزلة أيضا، ذلك أنه لا يؤمن إلا بالعقل وحده، فخالف بهذا أهل السنة؛ لأنهم يقدمون الشرع على العقل، وإن آمنوا به. وخالف مذهب المعتزلة؛ لأنهم على تقديمهم للعقل يتخذون الشرع لنظرهم أصلا ودليلا ويعتزون به ويلجأون إليه. وخالف مذهب السوفسطائية؛ لأنهم يتهمون العقل فلا يؤمنون به، ولا يعتمدون عليه.

وإذًا، فهو يرى رأي الفلاسفة النظريين من اليونان والمسلمين في الاعتماد على العقل خاصة.. لقد قال في الرد على الباطنية:

يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والإرساء

وقال:

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدا وأرحل عنها ما إمامي سوى العقل

---

(١١٧) [مرآة الإسلام] ص٢٧٧.

فهذا الحصر تصريح بأن الرجل لا يأتم إلا بعقله.. على أنه لم يستطع أن ينتحل للعقل العصمة، ولا أن يزعم قدرته على الإيصال إلى اليقين المطلق، بل حفظ للشك حقه في الدخول على ما أثبته العقل.. على أنه لا يعمم الشك إلا في مسائل الغيب، فأما عالم الشهادة فلا يبسط أبو العلاء الشك عليه.. فلم يكن من أهل الشك ولا من الذين يتخذون الشرع لهم إمامًا، وإنما هو من الذين لا يثقون إلا بالعقل، فإذا وثقوا به فلا يستسلمون إليه» .(١١٨)

بعد هذا الذي عرضه سنة ١٩١٤م رأيناه- في [مرآة الإسلام]- ينتقد هذا الغلو العقلاني عند أبي العلاء فيقول: «انظر إلى رجل حكيم كأبي العلاء، كيف غره الإيمان بالعقل فظن أنه الإمام ولا إمام غيره، وأنه وحده يهدي الناس في المسيرة والإرساء.. وكيف انتهى به إيمانه بالعقل إلى مقالة لا يسيغها الدين ولا يقرها الإسلام في قوله:

قلتم لنا خالق حكيم قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان ولا زمان ألا فقولوا
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

فعقله لم يستطع أن يتصور الخالق الحكيم في غير زمان ولا مكان، فاضطره ذلك إلى أن يصف الخالق الحكيم بما

(١١٨) [تجديد ذكرى أبي العلاء] ص٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢.

يصف به سائر المخلوقات من الخضوع للزمان والمكان، وهذا سخف لا يقول به مؤمن..

وكل هذا وأمثاله عند أبي العلاءِ وغيره من الذين غرهم العقل فأسرفوا في الإيمان به وحكّموه فيما لا يستطيع أن يحكم فيه، لا يدل إلا على الحيرة والعجز والقصور عن بلوغ الحقيقة التي حاولوا أن يبلغوها».(١١٩)

هـ- ورأيناه بعد أن كان يقول إن الناس مندفعون إلى العلم والمعارف الحديثة دون أن يعبئوا بالتوفيق بينها وبين العقائد.. يرفض التأويل.. والغلو العقلاني.. ويرى أن الدين مطلق، بينما العلم محدود.. ويسفه الغلو الباطني القائم على الإغراق والإغراب في التأويل.. فيقول:

«.. وما أحب أن أعرض لتأويل هذه الطير الأبابيل التي رمت الحبشة بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول؛ لأني أوثر دائما أن أقبل النص وأفهمه كما فهمه المسلمون الأولون حين تلاه عليهم النبي ﷺ... فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبابيل إنما كانت وباء من الأوبئة وكانت الحجارة ضربا من الميكروبات، إنما يقولون هذا من عند أنفسهم، وهم يعلمون حق العلم أن النبي وأصحابه لم يفهموا هذه السورة على هذا النحو، وما كان لهم أن يفهموها على هذا النحو، فهم لم يكونــوا يعرفون الميكروب، وما كان لهم أن يعرفوه.

---

(١١٩) [مرآة الإسلام] ص٢٨٠، ٢٨١.

وكذلك الذين يقولون إن السموات السبع التي تذكر في القرآن هي الكواكب السيارة، إنما يرجمون بالغيب ويقولون ما لم يقله النبي وأصحابه، ومصدر هذا أنهم يريدون أن يلائموا بين القرآن ومستكشفات العلم الحديث، فيضطرهم ذلك إلى تكليف النصوص من التأويل ما لا تحتمل. وليس على الدين بأس أن يلائم العلم الحديث أو لا يلائمه، فالدين من علم الله الذي لا حدَّ له، والعلم الحديث كالعلم القديم محدود بطاقة العقل الإنساني، وبهذا العالم الذي يعيش الإنسان فيه.

ومن أسخف السخف أن نحاول الملاءمة بين ما لا حد له وما هو محدود بطبعه. وصدق الله حين أنبأ بأن الراسخين في العلم يقولون:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

(آل عمران: ٨)

إن كل الذين حاولوا أن يعرفوا الله بعقولهم معرفة دقيقة لم يكتفوا بما اكتفى به النبي ﷺ وأصحابه رحمهم الله من قبول نص القرآن وفهمه في يسر وإسماح، وفي غير تكلف ولا إسراف في التأويل، والله عز وجل ينبئنا في القرآن أنه أنزل الكتاب فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، وبأن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، مع أن العلم بتأويله موقوف على الله عز وجل،

وبأن الراسخين في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وذلك في قوله عز وجل في سورة آل عمران:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾

(آل عمران: ٥ - ٨)

وهذه هي المقالة التي يجب على كل مؤمن أن يقول بها ويتخذها دينا. ولست أدري أيصل العقل إلى أن يبلغ ما لم يبلغه الآن من القوة أم لا، ولكن الشيء المحقق هو أن عقل القدماء وعقل المحدثين من أصحاب الفلسفة والعلم لا يزال أضعف وأقصر باعًا من أن يصلا إلى استكشاف حقيقة الله، أو البحث عن صفاته وإصدار هذه الأحكام التي أصدرها الفلاسفة والمتكلمون اغترارا بالعقل واستجابة لما لا ينبغي الاستجابة له.

ومن أجل هذا أقول: إن المؤولين من المحدثين كالمؤولين من القدماء قد استجابوا لعقولهم القاصرة واغتروا بها، وقالوا فيما ليس لهم أن يقولوا فيه، وطمعوا فيما ليس لهم أن يطمعوا فيه. ولو قد تواضع أولئك وهؤلاء، ووقفوا أنفسهم حيث تنتهي بهم قوتهم لكان خيرا لهم وللذين افتتنوا بهم من الناس.

وشر آخر.. ملأ حياة المسلمين فسادا أي فساد، وهو أمعن في التأويل إلى أبعد ما يتصور العقل، وإلى غير ما يفهم صراحة من نصوص القرآن.. كهؤلاء الباطنية الذين زعموا أن العلم بالدين علمان: علم ظاهر وهو ما عليه الناس في كثرتهم، وعلم باطن وهو ما هم عليه. وجعلوا يتركون ظاهر النص لأنه لا يليق إلا بعام الناس ولا يلائم خاصتهم، ثم يلتمسون للنص تأويلًا يخالف كل المخالفة ما يفهم منه لغة، وما فهمته جماعة المسلمين حين سمعوا النبي يتلو عليهم القرآن ويبين لهم ما أنزل عليهم وغلوا في ذلك كل الغلو حتى أحدثوا لأنفسهم دينا لا يدين به غيرهم من المسلمين فأفسدوا الدين والعقل معا».(١٢٠)

هكذا اتخذ طه حسين- من التأويل- هذا الموقف المحافظ الذي يستغربه أولئك الذين لم يدركوا هذا التطور الفكري الذي أحرزه الرجل في العديد من الميادين.

و- وغير النقد الشديد للتأويل الباطني للنصوص القرآنية- الذي أخرج أصحابه عن الدين، والذي أفسد الدين والعقل معًا- رأينا طه حسين ينتقد التصوف الباطني ومذاهب الإشراق، ووحدة الوجود.. فيقول:

«ولم يلبث التصوف أن تأثر بما عرف المسلمون من ثقافة الهند والفرس، ومن ثقافة اليونان خاصة. وتحول الزهد من

(١٢٠) المصدر السابق ص٣٢، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤.

نفرغ للعبادة وإمعان فيها إلى محاولة الاتحاد بالله أو الاتصال به، أو معرفته من طريق الإشراق. ثم اختلط التصوف بمذاهب الباطنية فازداد تعقيدا إلى تعقيد»[١٢١]

ز- وبعد أن كان يقول: إن الحكم إنما يقوم على «المنافع» لا على «الدين ولا على اللغة».. وأننا يجب أن نسير في هذا الحكم سيرة الأوربيين- الأجانب-.. رأيناه يرفض «هذا الشر العظيم» - الذي جاء به الأجانب- ويدعو إلى إقامة الحكم على ما جاء به الدين واللغة العربية.. ويفضل النموذج الإسلامي في الفقه على نظيره الروماني فيقول: «ولم يلبث الأمر أن صار إلى شر عظيم حين غلبت العناصر الأجنبية على شئون الحكم فأقامت هذه الشئون على المنافع، غير حافلة بما يأمر به الله من العدل والإنصاف والمساواة، والشعور المتصل بهذه الرقابة الرهيبة التي فرضها الله على الناس..

ثم لم يكتف الحكام الأجانب بهذا كله، ولكنهم جهلوا اللغة العربية فلم يقدروها قدرها، ولم يلتفتوا إلى أنها لغة القرآن والسنة والثقافة..

ومن أجل هذا كله غاضت تلك الينابيع الغزيرة التي كانت تمد عقول الفقهاء بهذا الإنتاج الخصب الرائع، الذي لا نعرف أنه أتيح لأمة قديمة قبل الأمة الإسلامية، حتى الأمة الرومانية التي برعت في الفقه وتعمقته»[١٢٢]

---

(١٢١) المصدر السابق ص٢٨٦.

(١٢٢) المصدر السابق ص٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩.

ح- وبعد أن كان مع الوطنية المصرية المجردة من العروبة والإسلام.. ثم مع الفرعونية الرافضة للعروبة والوحدة- أو حتى الاتحاد- مع العرب.. رأيناه يتحدث عن الوحدة الإسلامية- وليس فقط الوحدة العربية-.. وعن أن القرآن الكريم هو صانع الوحدة الإسلامية والعربية- قديما.. وحديثا.. ومستقبلا- فيقول:

«.. وإذا كان هناك الآن وحدة إسلامية عامة، أو شيء يشبه هذه الوحدة، فبفضل القرآن وجدت، وبفضل القرآن ستبقى مهما تختلف الظروف وتدلهمُّ الخطوب. وإذا كانت هناك وحدة يحاول العرب أن يعودوا إليها ويقيموا عليها أمرهم في الحياة الحديثة كما قامت عليها حياتهم القديمة، فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان للوحدة القديمة».(١٢٣)

ط- وبعد الإعراض عن التجديد الإسلامي، ونقد مذهب الأفغاني ومحمد عبده في الإحياء والإصلاح.. والدعوة- بدلا من ذلك- للسير وراء النموذج الغربي.. رأيناه يشيد بالمجددين المسلمين- ابن تيمية.. والأفغاني.. ومحمد عبده.. وعلماء التنوير الإسلامي- فيقول:

«ولقد أتيح للمسلمين، لحسن حظهم، أفراد من العلماء في عصور مختلفة لم يجحدوا التقليد جملة، وإنما حاولوا أن يعملوا عقولهم ويثبتوا شخصيتهم وينشروا النور من حولهم، وينظروا من علم القدماء فيما أعرض الناس عن النظر فيه.

وكان هؤلاء العلماء يجدون نفورا منهم وإعراضا عنهم،

---

(١٢٣) المصدر السابق ص١٦١.

وربما وجدوا تشهيرا بهم ومقاومة لهم، وربما أصابهم أذى يكثر أو يقل باعتبار الظروف التي تحيط بهم وتحيط بالناس من حولهم.

وانظر إن شئت سيرة ابن تيمية وما أصابه من إنكار العلماء الجامدين عليه، وبطش الحكام المستبدين به.. وما أظن المصريين نسوا جهاد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده- رحمهما الله- في هذا السبيل، وما لقيا من السخط عليهما والمكر بهما، والتنكر لمن ذهب مذهبهما أو اختلف إلى دروسهما»[١٢٤]

هكذا تحدث طه حسين عن ابن تيمية، كأحد الذين جاهدوا «فنشروا النور من حولهم».. بينما نرى الذين يتمسحون بطه حسين، دون أن يفقهوا تطوره الفكري، يتحدثون عن ابن تيمية فيرونه رأس الجمود والتقليد.. بل والإرهاب!!.

ى- وبعد كتاب [مستقبل الثقافة في مصر] والدعوة إلى أن نسير سيرة الأوربيين في الإدارة والحكم والتشريع.. أعلن طه حسين أن القرآن دين وشرع.. وأن مصادر التشريع هي: القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد.. فقال: «إن القرآن يشرع للمسلمين ما ينفعهم في الدنيا ويعصمهم من عذاب الآخرة إن استمسكوا به وأنفذوه على وجهه، فيشرع لهم من أمر الزواج والطلاق والميراث والوصية والبيع والشراء وغير ذلك ما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وحياتهم الفردية أيضا...

---

(١٢٤) المصدر السابق ص٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٦.

فكل ما يعرض للمسلمين من الأمر في حياتهم من المشكلات يجب عليهم أن يردوه إلى الله ورسوله، يلتمسون له الحل في القرآن، فإن وجدوا هذا الحل فهو حسبهم، وإن لم يجدوه فعليهم أن يلتمسوه في سنة النبي، فيما صحت به الرواية عنه من قول أو عمل.. فإذا التمس حل المشكلات في القرآن فلم يوجد، والتمس في السنة فلم يوجد، فالمسلمون يرجعون إلى أصل ثالث من أصول الأحكام في الدين، وهو إجماع أصحاب النبي.. فإن لم يجد المسلمون في القرآن ولا في السنة ولا فيما أجمع عليه أصحاب النبي حلًّا لبعض مشكلاتهم فعليهم أن يجتهدوا رأيهم، ناصحين لله ورسوله وللمسلمين».(١٢٥)

هكذا تحدث طه حسين عن مصادر التشريع والحكم والسياسة في الدولة الإسلامية.. ففصَّل سنة **١٩٥٩م** ما سبق أن أجمله سنة **١٩٥٣م**- في لجنة وضع الدستور- عندما دعا إلى حاكمية القرآن الكريم على القوانين والدستور.. ولم تكن صدفة أن ذلك العام- سنة **١٩٥٣م**- كان العام الذي حنَّ فيه طه حسين لزيارة مكة والمدينة، تلك الزيارة التي آب فيها الغريب إلى الوطن الذي صنع عقله وقلبه ووجدانه وعواطفه كلها.. فولد- في هذه الرحلة الحجازية- ميلادا جديدا!.

* * *

(١٢٥) المصدر السابق ص١٤٦، ٢٣٤، ٢٣٥.

● هكذا حدث التحول الحاسم لطه حسين- مائة وثمانين درجة!..

- فبعد أن كانت طريق النهضة هي وحدها طريق النموذج الغربي- لا تعدد فيها.. ولا عدول عنها-.. أصبحت الطريق:

- أن يثوب المسلمون إلى أنفسهم، ويحيوا تراثهم القديم، مضيفين إليه العلم الحديث.. مع التحذير من «العلم الاستعماري» الذي يقطع ما بين المسلمين وتاريخهم، والذي يفنيهم في الأمم المستعمَرة إفناء.. أي أصبحت «الإسلامية» هي طريق اليقظة والنهوض.. وفي ذلك قال طه حسين:

«إنني ألح على أن يثوب المسلمون إلى أنفسهم.. ليصبحوا أكفاء لقدمائهم من جهة، وأندادا للذين يحاولون أن يستذلوهم من جهة أخرى.. فالمستعمرون في العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا على المسلمين ضروبا من العلم قد تخرجهم من الجهل، ولكنها ستقطع الأسباب حتمًا بينهم وبين تاريخهم، وتفنيهم في الأمم المستعمرة إفناءً.. وسبيل المسلمين إلى هذه اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم، لا ليقولوا إنهم يذكرونه، بل ليعرفوه حق معرفته ويفقهوه جد الفقه، ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتيسيره لغير المتخصصين، هذه واحدة، والثانية أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث، ويبتغوا إليه الوسائل التي تتيح لهم أن يحققوه كما تحققه أصحابه، وأن يوطنوه في بلادهم،

ويجعلوه ملكًا لهم، وأن يبذلوا من الجهد ما يمكنهم في يوم قريب من ألا يكونوا عيالا على المستأثرين به، بل من يشاركون فيه مشاركة الأنداد الأكفاء.. وهذا الرقي متصل بالإسلام وحده.. فالقرآن.. وسنة النبي ﷺ.. وسيرة الخلفاء الصالحين من المسلمين.. وعلم العلماء المسلمين المسجل في الكتب، والذي لم ينشر إلا قليله.. كل هذا مطلوب العلم بحقائقه، وأن يتجاوز هذا العلمُ العقولَ والأفهامَ إلى القلوب والأمزجة، ويؤثر في الضمائر أعمق التأثير، ويؤثر في السيرة الظاهرة للمسلمين أعمق التأثير أيضًا».[126]

* * *

٥- وكان الختام مع [الشيخان]:

وبعد عام من نشر طه حسين لكتابه الفذ [مرآة الإسلام]- الذي حمل الكثير والكثير من مراجعاته الفكرية- جاء كتابه [الشيخان] سنة ١٩٦٠م- عن أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما-.. والذي ختم به مشروعه الفكري..

- ولقد بدأ هذا الكتاب بـ[بسم الله الرحمن الرحيم].
- وأكثر فيه من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ أكثر من مائة وستين مرة.. وأدام فيه الترحم على صحابة رسول الله رضي الله عنهم.
- وأعلن فيه تأكيدًا لما جاء في [مرآة الإسلام]- أن الإسلام

(١٢٦) المصدر السابق ص٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨،، ٣٠٩، ٣١٠.

قد أقام «أمة» سياسية، مصدر السياسة فيها هو الإسلام.. وأقام «دولة» قانونها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.. وأن «القضاء» كان سلطة مستقلة من سلطات هذه الدولة الإسلامية، قانونها القرآن والسنة والاجتهاد.. وفي ذلك قال:

«في العام الذي هاجر فيه النبي ﷺ نشأت للمسلمين جماعة منظمة مستقلة، يقوم النبي على أمرها بما كان الله يوحي إليه من القرآن الكريم، وما كان يلهمه من البيان للقرآن الكريم، وما كان يجتهد رأيه فيه، أو يستعين عليه برأي المسلمين..

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف قانونا إلا القرآن الكريم والسنة الشريفة.. ولقد أرسل عمر القضاة إلى الأمصار ليجروا أحكام الله بين الناس، غير متأثرين إلا بكتاب الله وسنة رسوله، فإن لم يجدوا في الكتاب ولا في السنة نصًا اجتهدوا رأيهم وتحرَّوا العدل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ولم يكن القضاة يخضعون للولاة في شيء، وإنما كان عمر هو الذي يختارهم، فإذا اختارهم وكلفهم أمر القضاء فليس لأحدٍ عليهم سلطان إلا سلطان الله عز وجل، بمقتضى ما أوحى إلى نبيه من الكتاب وما ألهمه من السنن.. وإنما يكره الله من الأئمة أن يبتدعوا في سياسة الناس ما لا يلائم أصول الإسلام».[127]

---

(١٢٧) طه حسين [الشيخان] ص١٦٣، ٢٢٩، ١٩٣، ٢٠٧. طبعة دار المعارف- القاهرة سنة ٢٠٠٣م.

هكذا تحدث طه حسين رحمه الله على صفحات هذا الكتاب، الذي ابتعدنا فيه عن الاستنتاجات والتأويلات.. ليجعل الرجل هو الذي يحكي مراحل فكره التي امتدت أكثر من خمسين عاما.

آملين أن يكون هذا «الكتاب- الوثيقة» دعوة صادقة ومخلصة للفرقاء المختلفين حول طه حسين- الذين تعصبوا له.. والذين تعصبوا عليه- كي يعيدوا النظر في أحكامهم الجائرة، القائمة على «الحَوَل الفكري»! واجتزاء النصوص، و«حرق» المراحل الفكرية المتمايزة..

وذلك ابتغاء الاجتماع على كلمة سواء حول هذا الرجل العظيم، الذي أثار من الجدل والمعارك الفكرية أكثر مما أثار أحد سواه عبر عقود القرن العشرين..

سائلين المولى سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.. وأن يجعله لبنة في بناء «الرشد الفكري» لأبناء أمة الإسلام.. إنه سبحانه خير مسئول وأكرم مجيب.

دكتور/ محمد عمارة

٢٧ رجب ١٤٣٥هـ

٢٦ مايو ٢٠١٤م

- أبو بكر عبد الرازق: [وثائق قضايا طه حسين] طبعة بيروت- المكتبة العصرية- صيدا ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

- أنور الجندي: [طه حسين: حياته وفكره في ضوء الإسلام]- القاهرة- دار الاعتصام ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

- بنديكتوس السادس عشر: [بلا جذور. الغرب. النسبية. المسيحية. الإسلام] نيويورك ٢٠٠٦م.

- الجاحظ: [كتاب الحيوان]- تحقيق: عبد السلام هارون- طبعة القاهرة- الثانية.

- الجامعة الأمريكية: [حضارة مصر الحديثة]- المطبعة العصرية- القاهرة ١٩٣٣م.

- الجبرتي: [عجائب الآثار]- تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، السيد إبراهيم سالم- القاهرة ١٩٦٥م.

- جمال أحمد عبد الحميد: [الاتجاهات الدينية في أدب طه حسين]- الهيئة العامة للكتاب- القاهرة ٢٠٠٨م.

- د. جورج طرابيشي: [معجم الفلاسفة]- طبعة بيروت ١٩٩٧م.

- حسين محمد بافقيه: [طه حسين والمثقفون السعوديون]- طبعة دار المؤلف- بيروت ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

- سوزان طه حسين: [معك] ترجمة: بدر الدين عرودكي-

مراجعة: محمود أمين العالم- المركز القومي للترجمة- القاهرة ٢٠٠٦م.

- سيد قطب: [مستقبل الثقافة في مصر- لطه حسين] صحيفة دار العلوم ١٩٣٩، ٢٠٠٢م.

- د. سيجريد هونكه: [العقيدة والمعرفة] ترجمة: عمر لطفي العالم- طبعة دمشق ١٩٨٧م.

- د. طه حسين: [تراث طه حسين] ج١- التعليم- دراسة: د. سعيد إسماعيل علي- دار الكتب والوثائق القومية ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

- [تراث طه حسين] ج٢- الإسلاميات والنقد الأدبي- دراسة: إبراهيم عبد العزيز- دار الكتب والوثائق القومية ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

- [تراث طه حسين] ج٣- المقالات الصحفية (١٩٠٨- ١٩٦٧م)- دراسة: د. أحمد زكريا الشلق- دار الكتب والوثائق القومية ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

- [تراث طه حسين] ج٤- أزمة النظام السياسي المصري- دراسة: د. رءوف عباس- دار الكتب والوثائق القومية ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

- [تراث طه حسين] ج٥- التربية السياسية- دراسة: د. رءوف عباس- دار الكتب والوثائق القومية ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م.

- [تراث طه حسين] ج٦- طه حسين وثورة يوليو- دراسة: د. أحمد زكريا الشلق- دار الكتب والوثائق القومية ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
- [الكتابات الأولى] تحقيق وتقديم: د. عبد الرشيد الصادق المحمودي- دار الشروق- القاهرة ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.
- [مرآة الإسلام] طبعة دار المعارف- القاهرة ١٩٥٩م.
- [الشيخان] طبعة دار المعارف- القاهرة ٢٠١٣م.
- [فلسفة ابن خلدون الاجتماعية] ترجمة: محمد عبد الله عنان- طبعة القاهرة ١٣٤٣هـ- ١٩٢٥م.
- [قادة الفكر] طبعة القاهرة- الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٤م.
- [مستقبل الثقافة في مصر] طبعة القاهرة ١٩٣٨م.
- [في الشعر الجاهلي] طبعة القاهرة ١٩٢٦م.
- [في الأدب الجاهلي] طبعة القاهرة ١٩٢٧م.
- [صوت أبي العلاء] طبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة- القاهرة ٢٠١٤م.
- [مع أبي العلاء في سجنه] طبعة دار المعارف- القاهرة ٢٠١٣م.
- [تجديد ذكرى أبي العلاء] طبعة دار المعارف- القاهرة- ١٩٦٣م.
- [الفتنة الكبرى] ج١، ج٢ طبعة دار المعارف- القاهرة ١٩٨٤، ١٩٨٢م.

- [الوعد الحق] طبعة دار المعارف- القاهرة ٢٠٠٩م.
- [المعذبون في الأرض] طبعة دار المعارف- القاهرة ٢٠٠٨م.
- [من الشاطئ الآخر] ترجمة: عبد الرشيد الصادق المحمودي- طبعة المركز القومي للترجمة ٢٠٠٨، وطبعة بيروت ١٩٩٠م.
- [أوراق طه حسين ومراسلاته] ج١- طبعة دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- [أوراق طه حسين ومراسلاته] ج٢- طبعة دار الكتب والوثائق القومية- القاهرة ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- [طه حسين: الوثائق السرية] تحقيق وتقديم: د. عبد الحميد إبراهيم- طبعة دار الشروق- القاهرة ٢٠٠٦م.
- [على هامش السيرة] طبعة الهيئة العامة للكتاب- القاهرة ٢٠١٤م.
- علي عبد الرازق: [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة ١٩٢٥م.
- د. غالي شكري: [ماذا يبقى من طه حسين؟] طبعة بيروت ١٩٧٤م.
- فاطمة بنت حميد بن جود الله الحسني: [فكر طه حسين في ضوء العقيدة الإسلامية] رسالة ماجستير- كلية أصول الدين- جامعة أم القرى- مكة المكرمة ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

- كامل الشناوي: مجلة [آخر ساعة] عدد ١٦ فبراير ١٩٥٥م.
- لجنة وضع دستور ١٩٥٤م: [محضر اجتماع لجنة الحريات] طبعة مطبعة وزارة الإرشاد القومي- القاهرة- بدون تاريخ.
- مجمع اللغة العربية: [المعجم الفلسفي] طبعة القاهرة ١٩٧٩م.
- محمد إبراهيم الجزيري: [سعد زغلول: ذكريات تاريخية] طبعة كتاب اليوم- القاهرة.
- د. محمد حسين هيكل: [حياة محمد] طبعة القاهرة ١٩٣٠م.
- [في منزل الوحي] طبعة القاهرة ١٩٦٧م.
- د. محمد الدسوقي: [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] طبعة دار المعارف- اقرأ ١٩٩٢م.
- محمد سيد كيلاني: [طه حسين الشاعر الكاتب] دار القومية العربية للطباعة والنشر- القاهرة ١٩٦٣م.
- د. محمد عمارة: [الانتماء الحضاري للغرب أم للإسلام] طبعة نهضة مصر- القاهرة ٢٠٠٨م.
- د. محمد عمارة: [الحملة الفرنسية في الميزان] طبعة نهضة مصر- القاهرة ١٩٩٨م.
- د. محمد عمارة: [الشيخ المراغي والإصلاح الديني في

القرن العشرين] طبعة دار السلام- القاهرة ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

- د. محمد عمارة: [الفاتيكان والإسلام] طبعة مكتبة وهبة- القاهرة ٢٠١١م.
- د. محمد عمارة: [معركة الإسلام وأصول الحكم] طبعة دار الشروق- القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
- د. محمد عمارة: [عوامل امتياز الإسلام] طبعة دار السلام- القاهرة ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.
- محمد نور الدين: [قرار النيابة في كتاب الشعر الجاهلي] مطبعة الشباب- القاهرة- بدون تاريخ.
- د. مراد وهبة، يوسف كرم، يوسف شلالة: [المعجم الفلسفي] طبعة القاهرة ١٩٧١م.
- [الموسوعة العربية] دمشق ٢٠٠٣م.
- نللينو: [محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية] بحث منشور بكتاب: د. عبد الرحمن بدوي [التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة ١٩٦٥م.
- يوحنا النقيوسي: [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: رؤية قبطية للفتح الإسلامي] ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل- طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.



الفهـــــرس



المسجد الكبير في باريس، أسس عام 1926 م

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ذي القعدة ١٤٣٥ هـ

الأزهر

ALAZHAR



www.AlazharMag.com